الباب الثالث

نماذج من كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة »

سنعرض فى هـذا الباب خمسة نماذج من أهم ما يشتمل عليه هذا الكتاب ، توضح ماقررناه فى الفصلين السابقين ، وتكشف عن أسلوب المؤلف وطريقته فى التفكير ، وهى البحوث التى وضع لها الفارابى العناوين الآتية :

١ — القول فى احتياج الإنسان إلى الاجتماع والتعاون ؛

٢ — القول فى العضو الرئيس ؛

٣ — القول فى خصال رئيس المدينة الفاضلة ؛

٤ — القول فى مضادات المدينة الفاضلة ؛

٥ — القول فى اتصال النفوس بعضها ببعض .

وسنثبت فى هـذه الفصول نص الفارابى ، ثم نشرحه فى عبارة سهلة واضحة تبين عما يقصده ، ونعلق فى الهامش على ما يحتاج من كلماته وعباراته إلى تعليق .

— ١ —

القول فى احتياج الإنسان إلى الاجتماع والتعاون

« وكل واحد من الناس مفطور على أنه محتاج فى قوامه[1] وفى أن يبلغ أفضل كمالاته إلى أشياء كثيرة لا يمكنه أن يقوم بها كلها هو وحده ، بل يحتاج إلى قوم يقوم له كل واحد منهم بشىء مما يحتاج إليه . وكل واحد من كل واحد بهذه الحال[2] ».

يقرر الفارابى أن الإنسان مدنى بطبعه . وأنه بفطرته محتاج من الناحيتين المادية والمعنوية إلى أشياء كثيرة ، ليس فى وسعه أن يستقل بأدائها ، وينفرد بالقيام بها ؛ بل هو محتاج إلى عمل كل فرد فى مجتمعه . ولعله يشير إلى الناحية المادية بقوله : « فى قوامه » ، وهى التى تتصل . بالقوة الغاذية » ؛ ويشير إلى الناحية المعنوية بقوله « أفضل كمالاته » وهى السعادة . وهـذا التعبير الأخير تعبير فلسفى مأخوذ من مذهب أفلاطون وأرسطو ؛ إذ أن الكمال المطلق عندهما هو السعادة ، والسعادة أن يُعبَّد للإنسان طريق القيام بالأمور التى تصدر عن فكر وروية . وإنما كانت السعادة أفضل الكمالات لأنها تتصل بأفضل القوى الإنسانية وهى القوة العاقلة . فالفارابى يريد أن

---

(١) قوام الشىء بفتح القاف وكسرها (ومن اللغويين من يقتصر على الكسر) أى عماده الذى يقوم به وينتظم . وتقلب الواو ياء جوازاً مع الكسر ، ومنه قوله تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما » (آية ٥ من سورة النساء) .

(٢) وكل واحد بالنسبة الى كل واحد آخر ، أو موقفه من كل واحد آخر .

يقرر أن السعادة نفسها لا ينالها الإنسان إلا بالتعاون ، وخاصة التعاون الفكرى . ومعنى قوله « وكل واحد من كل واحد بهذه الحال » أن موقف كل فرد من كل فرد آخر تتوافر فيه الحال التى ذكرها ؛ أى أن الناس قاطبة فى حاجتهم إلى التعاون سواء .

* * *

« فلذلك لا يمكن أن يكون الإنسان ينال الكمال الذى لأجله جعلت له الفطرة الطبيعية[1] إلا باجتماعات جماعة كثيرة متعاونين ، يقوم كل واحد لكل واحد ببعض ما يحتاج إليه فى قوامه ، فتجتمع مما يقوم به جملة الجماعة لكل واحد جميع ما يحتاج إليه فى قوامه ، وفى أن يبلغ الكمال ؛ ولهذا كثرت أشخاص الإنسان فحصلوا[2] فى المعمورة من الأرض ، فحدثت منها[3] الاجتماعات الإنسانية » .

ولا يمكن أن ينال الإنسان الكمال الذى تتجه إليه فطرته إلا باجتماع أفراد كثيرين يقوم كل منهم ببعض ما يحتاج إليه الآخرون فى شئونهم

---

(١) « جعلت له الفطرة الطبيعية » بالبناء للمجهول أى وجهت اليه واتجهت له ، لأن الفارابى يرى أن هذا الاتجاه فطرى فى الانسان ، كما يدل على ذلك صدر عبارته : « وكل واحد من الناس مفطور ... الخ » .

(٢) أى ثبتوا واستقروا من حصل الشىء حصولا اذا ثبت .

(٣) « حدثت منها » أى من الأشخاص أو من هذه الحالة .

المادية والمعنوية ، وتحقيقاً لهذا الغرض كثر الأفراد ، واستقروا فى أنحاء الأرض متكتلين فى طوائف متعاونة العناصر ، فتكونت منهم المجتمعات .

* * *

« فمنها الكاملة ومنها غير الكاملة . والكاملة ثلاث : عظمى ؛ ووسطى ؛ وصغرى . فالعظمى : اجتماعات الجماعة كلها فى المعمورة ؛ والوسطى اجتماع أمة فى جـــزء من المعمورة ؛ والصغرى اجتماع أهل مدينة فى جزء من مسكن أمة . وغير الكاملة : اجتماع أهل القرية ؛ واجتماع أهل المحلة(١) ؛ ثم اجتماع فى سكة(٢) ؛ ثم اجتماع فى منزل . وأصغرها المنزلة(٣) . والمحلة والقرية هما جميعاً لأهل المدينة : إلا أن القرية للمدينة على أنها خادمة للمدينة ؛ والمحلة للمدينة على أنها جزؤها . والسكة جزء المحلة ؛ والمنزل جزء السكة ؛ والمدينة جزء مسكن أمة ؛ والأمة جزء جملة أهل المعمورة » .

يقسم الفارابى المجتمعات إلى كاملة وغير كاملة . ويريد بالمجتمع الكامل ما يتحقق فيه التعاون الاجتماعى بوجه كامل ؛ وبغير الكامل ما لا يستطيع أن يكفى نفسه بنفسه ، أومالا يتحقق فيه التعاون الذى ذكره بصورة كاملة .

والمجتمعات الكاملة ثلاثة : أعظم وأوسط وأصغر . فالمجتمع الأعظم ،

---

(١) المحلة بالفتح معناها فى اللغة المكان ينزله القوم .
(٢) السكة بكسر السين معناها فى اللغة الزقاق .
(٣) أى اجتماع أفراد الأسرة الواحدة فى المنزل .

أى أكثرها كمالا ، هو انتظام العالم كله فى مجتمع واحد تحت سلطة حكومة واحدة ورئيس واحد . والأوسط ، وهو ما يليه كمالا ، هو اجتماع أمة فى جزء من العالم بحكومة مستقلة . والأصغر ، وهو أقلها جميعاً فى الكمال ، هو اجتماع أهل مدينة فى أمة ما بحكومة مستقلة كذلك .

ويلاحظ أن الاجتماع الأول الذى ذكره الفارابى وجعله أكمل المجتمعات الكاملة جميعاً لم يذكره أحد قبله ، بل لم يخطر ببال فلاسفة اليونان الذين اغترف من فلسفتهم ونظرياتهم كأفلاطون وأرسطو ؛ ولعل ذلك يرجع إلى تأثره بتعاليم دينه . إذ إن الإسلام يهدف إلى إخضاع العالم كله لحكومة الخليفة . أما فلاسفة اليونان فلم يكن عندهم تلك الفكرة ؛ بل إن أكبر مجتمع فكروا فيه ووقعت عليه مشاهداتهم كان المدينة أو الجمهورية .

وأما المجتمعات غير الكاملة فيقسمها أربعة أنواع : اجتماع أهل القرية ، وهى مجتمع تابع للمدينة وخادم لها ؛ واجتماع أهل المحلة ، وهى جزء من المدينة وحى من أحيائها ؛ واجتماع فى سكة ، وهى جزء من المحلة ؛ واجتماع فى منزل ، وهو اجتماع أفراد الأسرة فى منزل واحد . وأنقص تلك المجتمعات فى نظره هو مجتمع الأسرة ؛ وأقل منه نقصاً مجتمع السكة ؛ وأقلها جميعاً فى النقص وأدناها إلى المجتمعات الكاملة مجتمعا القرية والمحلة . وهاتان فى درجة واحدة ؛ غير أن الثانية جزء من المدينة بينما الأولى خادمة وتابعة لها .

وموضوع الفارابى هو الكلام على المجتمعات الكاملة . غير أنه أهمل القسمين الأولين من هذه المجتمعات وهما اجتماع العالم واجتماع الأمة ، وقصر كلامه الآتى على اجتماع المدينة . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى الأمرين الآتيين :

١ — أنه رأى أن اجتماع العالم على الصورة التى ذكرها هو اجتماع مثالى ولـكنه متعذر التحقق .

٢ — أن المدينة هى الخلية الأولى للمجتمعات الـكاملة ، فبصلاحها تصلح هذه المجتمعات وبفسادها يعتورها الفسـاد . فالـكلام على الأمور التى يجب أن تتوافر فيها حتى تكون فاضلة — وهو الذى عرض له الفارابى فيما يلى — يعد شرحاً لدعائم الفضل فى سائر المجتمعات الـكاملة .

* * *

« فالخير الأفضل والـكمال الأقصى إنما ينال أولا بالمدينـة . ولمـا كان شأن الخير فى الحقيقة أن يكون ينال بالاختيار والإرادة ، وكذلك الشرور إنما تكون بالإرادة والاختيار ، أمكن أن تجعل المدينة للتعاون على بلوغ بعض الغايات التى هى شرور . فلذلك كل مدينة يمكن أن ينال بها السعادة(١) . فالمدينة التى يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التى تنال بها السعادة فى الحقيقة هى المدينة الفاضلة ؛ والاجتماع الذى به يتعاون على نيل السعادة هو الاجتماع الفاضل ؛ والأمة التى تتعاون مدنها كلها على ما تنال به السعادة هى الأمة الفاضلة ؛ وكذلك المعمورة الفاضلة إنما تكون إذا كانت الأمم(٢) التى فيها يتعاونون على بلوغ السعادة » .

فأول اجتماع من المجتمعات الـكاملة ، أى أصغرها وأقلها كمالا ، يمكن أن

---

(١) أى ان نيل السعادة بها أمر ممكن وليس ضروريا .
(٢) فى النسخة المتداولة « الأمة » وهو خطأ مطبعى كما لا يخفى وصوابه « الأمم » .

ينال عن طريقه الخير والكمال الأقصى ، هو اجتماع المدينة ؛ أو إن الخير والكمال ينالان أولا فى الخلية الأولى للمجتمعات الكاملة وهى المدينة ؛ أو إن أول درجة من درجات الخير الأفضل والكمال الأقصى تنال فى المدينة . والتعاون فى المدينة لا يلزم أن يكون على الخير ، بل يمكن أن يتعاون الأفراد فيها على الشر . لأن كلا من الخير والشر يرجع إلى الإرادة والاختيار ؛ وأفراد المدينة مريدون مختارون ؛ وتعاونهم على الخير يتمثل فى تعاونهم الإرادى على تحقيق السعادة لجميع الأفراد . فتحقق السعادة على هذه الصورة فى اجتماع المدينة هو إذن أمر ممكن وليس ضرورياً .

والمدينة التى تتحقق فيها السعادة على هذه الصورة هى المدينة الفاضلة . وما يصدق على المدينة يصدق على غيرها من المجتمعات الكاملة : فالأمة التى تتعاون مدنها كلها على ما تنال به السعادة هى الأمة الفاضلة ؛ والمعمورة الفاضلة هى التى تتعاون أممها كلها على بلوغ السعادة .

* * *

« والمدينة الفاضلة تشبه البدن الصحيح الذى تتعاون أعضاؤه كلها على تتميم حياة الحيوان ، وعلى حفظها عليه . وكما أن البدن أعضاؤه مختلفة متفاضلة الفطرة والقوى : وفيها عضو واحد رئيس هو القلب ؛ وأعضاء(١) تقرب مراتبها من ذلك الرئيس، وكل واحد منها جعلت فيه بالطبع قوة يفعل بها فعله(٢) ابتغاء لما هو بالطبع غرض ذلك العضو الرئيس ؛ وأعضاء أخَر

---

(١) فى النسخة المتداولة « وأعضاؤه » وهو خطأ مطبعى كما لا يخفى وصوابه « وأعضاء » .

(٢) أى الفعل الذى أعد له وهيىء لأدائه .

فيها قوى تفعل أفعالها على حسب أغراض هذه التى ليس بينها وبين الرئيس واسطة ، فهذه فى الرتبة الثانية ، وأعضاء أخر تفعل الأفعال على حسب غرض هؤلاء الذين فى هذه الرتبة الثانية ... ثم هكذا إلى أن تنتهى إلى أعضاء تَخدم ولا تَرأس أصلا(١) ، كذلك المدينة : أجزاؤها مختلفة الفطرة متفاضلة الهيئات ، وفيها إنسان هو رئيس ، وأُخر تقرب مراتبها من الرئيس ، وفى كل واحد منها هيئة وملكة(٢) يفعل بها فعلا يقتضى به ما هو مقصود ذلك الرئيس ، وهؤلاء هم أولو المراتب الأُوَل . ودون هؤلاء قوم يفعلون الأفعال على حسب أغراض هؤلاء(٣) ، وهؤلاء فى الرتبة الثانية . ودون هؤلاء أيضاً من يفعل الأفعال على حسب أغراض هؤلاء(٤) ... ثم هكذا تترتب أجزاء المدينة إلى أن تنتهى إلى أخر يفعلون أفعالهم على حسب أغراضهم(٥) ، فيكون هؤلاء هم الذين يَخدمون ولا يُخدمون ، ويكونون فى أدنى المراتب ويكونون هم الأسفلين » .

---

(١) أى ليست لها سيطرة على أعضاء ما ولا تأتمر أعضاء ما بأمرها .

(٢) هيئة الشيء ما خلق الشيء عليه وما هو مهيأ له بالفطرة أو بالكسب ؛ وملكة الشيء كذلك قوامه وطبيعته وما فيه من خصائص فطرية أو مكتسبة .

(٣) اشارة الى أهل المرتبة الأولى .

(٤) اشارة الى أهل المرتبة الثانية .

(٥) أغراض من هم فى المرتبة السابقة لهم ، فالضمير يعود على « هؤلاء » التى يشير بها الفارابى دائما فى هذه العبارة الى أهل المرتبة السابقة للمرتبة التى يتحدث عنها .

فالمدينة الفاضلة فى تعاون أفرادها على تحقيق السعادة للمجموع تشبه البدن الصحيح الذى يتعاون أعضاؤه كلها على حفظ حياته ، وهى تشبهه كذلك فى مراتب عناصرها وأهميتها بعضها بالنسبة لبعض ، ففى البدن عضو رئيس وهو القلب تخضع له سائر الأعضاء وتختلف مراتبها بالنسبة له . فمنها ما تتصل به مباشرة وهى أعضاء أودعت فيها قوة فطرية تجعلها تقوم بأعمالها وفقاً لما يبتغيه القلب ، وبحسب مايصدر إليها منه عن طريق مباشر ، وهذه فى المرتبة الأولى بعد القلب ، وذلك مثل المعدة والكبد . ومنها ما يتصل مباشرة بأعضاء المرتبة الأولى ويخضع لها فيفعل أفعاله بالفطرة وفق مايبتغيه ، وهذه هى أعضاء المرتبة الثانية ، وذلك مثل المرارة والكلية المرءوستين للكبد . وهكذا دواليك إلى أن تأتى فى المرتبة الأخيرة أعضاء تخضع لغيرها ولايخضع لها غيرها ، وذلك مثل المثانة التى تخضع للكلية وتخدمها(١) . وكذلك أفراد المدينة . فهم مختلفون متفاضلون فى فطرهم وما هيئوا له . ومن ثم اختلفت مراتبهم وتباينت درجاتهم . ففيهم رئيس هو أكملهم جميعاً ويخضع له جميع من عداه . ويليه فى المرتبة أفراد يتصلون به مباشرة ، ويتلقون منه الأمر ، وقد أودع فى كل منهم هيئة وملكة تتيح له أن يحقق أغراض الرئيس ، وهؤلاء فى المرتبة الأولى بعد الرئيس . ويلى هؤلاء أفراد يتصلون بهم مباشرة ويخضعون لهم ، فيفعلون أفعالهم وفق ما يبتغيه أهل المرتبة الأولى ، وهؤلاء أهل المرتبة الثانية . . . وهكذا دواليك ، إلى أن يأتى فى المرتبة الأخيرة أفراد مهيئون لأن يخضعوا لغيرهم بدون أن يهيئوا لأن يخضع لهم غيرهم .

* * *

(١) اقتبسنا هذا المثال والمثالين السابقين من الفارابى نفسه فى الفصل الذى تكلم فيه عن « أجزاء النفس الانسانية وقواها » من هذا الكتاب .

«غير أن أعضاء البدن طبيعية ، والهيئات التى لهـــا قوى طبيعية . وأجزاء المدينة ـــ وإن كانوا طبيعيين ـــ فإن الهيئات والملكات التى يفعلون بها أفعالهم للمدينة ليست طبيعية بل إرادية . على أن أجزاء المدينة مفطورون بالطبع بفطر متفاضلة يصلح بها إنسان لإنسان لشىء دون شىء . غير أنهم ليسوا أجزاء للمدينة بالفطر التى لهم وحدها ، بل بالملكات الإرادية التى تحصل لها ، وهى الصناعات وما شاكلها . فالقوى التى هى لأعضاء(١) البدن بالطبع فإن نظائرها فى أجزاء المدينة ملكات وهيئات إرادية » .

بعد أن شبه أجزاء المدينة بأعضاء الجسم ، والرئيس بالقلب ، استدرك فبين أن أعضاء البدن أمور طبيعية والقوى التى تهيئها لأداء أعمالها أمور فطرية طبيعية كذلك ، على حين أن أفراد المدينة ، وإن كانوا طبيعيين ، لأنهم من خلق الله ، فإن القوى التى تهيئهم لأداء وظائفهم وملكات حذقهم لأعمالهم كل هذه الأمور إرادية مكتسبة وليست فطرية طبيعية . حقاً إنهم مزودون باستعدادات فطرية متفاوتة تجعلهم متفاضلين فيما يصلحون لأدائه لغيرهم ولمدينتهم من أعمال . غير أن الواحد منهم لا يكون عضواً فى المدينة بتلك الأمور الفطرية وحدها ، بل على الأخص بحسب ما يكتسبه من أمور إرادية كالصناعات والحرف . فالقوى الطبيعية الفطرية المودعة فى أجزاء البدن يقابلها فى أجزاء المدينة أو يقابل معظمها وأهمها فى أجزاء المدينة ملكات وهيئات مكتسبة إرادية .

* * *

(١) فى النسخة المتداولة « والقوى التى هى أعضاء البدن » وهو خطأ مطبعى كما لا يخفى وصوابه ما أثبتناه .

— ٢ —

القول فى العضو الرئيس

« وكما أن العضو الرئيس فى البدن هو بالطبع أكمل أعضائه وأتمها فى نفسه وفيما يخصه ، وله من كل مايشارك فيه عضواً آخر أفضلها (١) . ودونه أيضاً أعضاء أخرى رئيسة لما دونها ، ورياستها دون رياسة الأول ، وهى تحت رياسة الأول تـرأس وتـرأس . كذلك رئيس المدينة هو أكمل أجزاء المدينة فيما يخصه ، وله من كل ما شارك فيه غيره أفضله . ودونه قوم مرءوسون منه ويرأسون آخرين » .

يريد بالعضو الرئيس هنا القلب ويريد بالطبع الطبيعة أو الفطرة . والمعنى أن القلب فى البدن يفوق بقية الأعضاء كمالا وتماماً . فهو أكملها فى نفسه أى من جهة خلقه وتركيب أجزائه . وهو أكملها فيما يختص به من الوظائف والأعمال التى لايشاركه فيها غيره من الأعضاء كدفع الدم إلى الجسم وتزويده به ، فإنه يقوم بذلك كله ، ويستأثر به دون بقية الأعضاء . وهو إذ يشارك غيره فى بعض وظائفه وصفاته لا يشاركه إلا فى أفضل هذه الوظائف والصفات . ويقع تحت رياسة القلب أعضاء أخرى أقل منه كمالا وشرفاً . ولكنها أيضاً درجات ومراتب . فأسماها منزلة يكون مرءوساً للقلب مباشرة ورئيساً لغيره . غير أن رياستها لمادونها تكون أنقص وأقل من رياسة العضو الأول (وهو القلب) لها . فتسند إليها أعمال هى فى الأهمية

---

(١) الضمير يعود على « ما » يشارك ، أى ان له من الأمور التى يشارك فيها غيره أفضل هذه الأمور ؛ وهذا مقابل لقوله «فيما يخصه» .

أدنى ممـــا أسند إلى القلب ، وتؤديها تحت سيطرة القلب ؛ ولـكنها أكمل وأشرف ممـا أسند إلى الأعضاء الأخرى التى تخضـع لرياستها . — وكذلك شأن المدينة الفاضلة . ففيها رئيس له من الصفات والوظائف والأعمال بالنسبة إلى غيره ما يشـبه صفات القلب ووظائفه وأعماله بالنسبة لبقيـة الأعضاء : فهو أكمل أفراد المدينة فى ذاته ؛ وأكملهم فيما يستأثر به من صفات ؛ وهو إذ يشارك غيره فى بعض صفاته وأعماله لا يشاركه إلا فى أفضل هذه الصفات والأعمال . وكما أن فى البدن أعضاء تخضع مباشرة للقلب وتتلقى أوامرها منه بدون واسطة ، كذلك فى المدينة الفاضلة . فهناك أفراد يتصلون بالرئيس مباشرة ويتلقون منه الأوامر بدون واسطة ، ويرأسون آخرين فى المرتبة الثانية . . . وهكذا دواليك . ورياسة كل مرتبة لمـا دونها أنقص من رياسة المرتبة السابقة لها . وصفات كل طبقة وأعمالها أقل كمالا ورقياً من صفات الطبقة السابقة لها وأعمالها .

* * *

« وكما أن القلب يتـكون أولا ، ثم يكون هو السببَ فى ان يكون سائر أعضاء البدن(١) والسببَ فى أن تحصل لها قواها وأن تترتب مراتبها ؛ فإذا اختل فيها عضو كان هو المُرفِد(٢) بما يزيل عنه ذلك الاختلال ، كذلك رئيس هذه المدينة : ينبغى

---

(١) يكون هنا تامة بمعنى يوجد ، أى فى أن يوجد سائر أعضـاء البدن .

(٢) رفده رفدا من باب ضرب أعطاه أو أعانه والرفد بالكسر اسم منه ، وأرفدة بالألف مثله . وقد استعمل الفارابى الفعل المزيد .

أن يكون هو أولا ؛ ثم يكون هو السبب فى أن تحصل المدينة وأجزاؤها والسبب فى أن تحصل الملكات الإرادية التى لأجزائها ؛ وفى أن تترتب مراتبها ؛ وأن اختل منها جزء كان هو المرفد له بما يزيل عنه اختلاله » .

يقول : إن القلب هو سبب الحياة فى الجسم ، فهو الذى يمد جميع الأعضاء بما ينميها ويكونها ، ولذلك فهو يتكون أولا (١) ثم يكون هو السبب فى أن تتكون بعد ذلك سائر الأعضاء وتحصل على قواها وتترتب فى منازلها . فبعضها يكون رئيساً وبعضها يكون مرءوساً ، وهكذا كما تقدم . فإذا اعتل عضو من هذه الأعضاء أو اختلت وظيفته فإن القلب هو الذى يمده بما يزيل علته ويرفع اختلاله ، ويرد إليه الاعتدال . وإذا كان الأمر كذلك فى القلب فينبغى أن يكون بعينه فى رئيس المدينة الفاضلة : فهو يوجد أولا ثم توجد بوجوده المدينة وأفرادها ، أى تتكون بفضله وتنشأ بنشأته ، لأنها قبل أن يوجد الرئيس تكون أشتاتاً لاجامع لها ولامنظم لحالها ، بل لاتستحق اسم المدنية . فهو الذى يلم شعثها ، ويضعها تحت لوائه ، ويؤلف منها وحدة تقوم بغاية اجتماعية فى الحياة . فإليه إذن يرجع الفضل فى وجودها على صورة مدينة بالمعنى الاجتماعى لهذه الكلمة ؛ وإليه كذلك يرجع الفضل فيما يحصل عليه كل فرد من أفراد المدينة من ملكات إرادية توليه وجهته ، وتهديه إلى وظيفته فى المجتمع ، وتنزله فى مرتبته بالنسبة لغيره . وإذا اختل فرد من أفراد المدينة فخرج عن وضعه ، أو جانب ما هيىء له ، أو تجاوز ما رسم له من حدود ، فإن الرئيس هو الذى يمده بما يعيده سيرته ، وينزله منزلته ، ويلزمه جادة السبيل .

---

(١) لا يقصد الأسبقية فى الخلق وانما يقصد الأسبقية فى الوظائف وفى توقف وظائف غيره عليه .

« وكما أن الأعضاء التى تقرب من العضو الرئيس تقوم فى الأفعال الطبيعية التى هى على حسب غرض الرئيس الأول بالطبع بما هو أشرف(١) ، وما هو دونها من الأعضاء يقوم فى الأفعال بما هو دون ذلك فى الشرف ، إلى أن ينتهى إلى الأعضاء التى يقوم بها من الأفعال الأخس(٢) ، كذلك الأجزاء التى تقرب فى الرياسة من رئيس المدينة تقوم من الأفعال الإرادية بما هو أشرف ، ومن دونهم بما هو دون ذلك فى الشرف إلى أن ينتهى إلى الأجزاء التى تقوم من الأفعال بأخسها » .

يقول : إن الأعضاء التى تقع تحت رياسة القلب مباشرة تكون أدنى إليه من الأعضاء الأخرى ، فهى تؤدى من الأفعال الطبيعية ، على حسب إرادة ذلك القلب وعلى مقتضى غرضه ، أشرف هذه الأفعال وأنبلها بالقياس إلى الأفعال التى تقوم بها بقية الأعضاء . ودون هذه الأعضاء أعضاء أخرى تقع تحت رياسة الأعضاء الأولى وهى أدنى منها وأقل كمالا ، وهى لذلك تقوم بأفعال هى أدنى فى الشرف من أفعال الأعضاء الأولى ،

---

(١) أى تؤدى بطبعها من الأفعال الجسمية والطبيعية التى تحقق أغراض الرئيس الأول أشرف هذه الأفعال وأنبلها . هذا وفى النسخة المتداولة « بما هو شرف » وهو خطأ مطبعى كما لا يخفى وصوابه « بما هو أشرف » .

(٢) فى النسخة المتداولة . « يقوم بها من الأفعال أخس » وهو خطأ مطبعى وصوابه « يقوم بها من الأفعال الأخس » .

وهكذا حتى نصل إلى الأعضاء التى تُرأس ولا تَرأس ، فنرى أنها تقوم من الأفعال بأخسها جميعها . كذلك المدينة وأفرادها بالنسبة لرئيسهم وبعضهم بالنسبة لبعض . وكل ما بين أجزاء الجسم وأفراد المدينة من فرق أن الأعمال التى تقوم بها أجزاء الجسم طبيعية على حين أن الافعال التى يضطلع بها أفراد المدينة إرادية تصدر عن اختيار . فالأفراد الذين تلى منزلتهم منزلة رئيس المدينة يؤدون من الأفعال الإرادية أشرف هذه الأفعال وأنبلها بالقياس إلى مايقوم به غيرهم من الأفراد ، ومن دونهم يقومون بما هو دون ذلك ، وهكذا إلى أن ينتهى الأمر إلى أفراد يقومون بأخس الأعمال ؛ وهؤلاء هم أحط الطبقات منزلة وأبعدها عن الرئيس .

* * *

« وخسة الأفعال ربما كانت بخسة موضوعاتها ، وإن(١) كانت الأفعال عظيمة الغناء مثل فعل المثانة وفعل الأمعاء السفلى فى البدن . وربما كانت لقلة غنائها . وربما كانت لأجل أنها كانت سهلة جداً . كذلك فى المدينة » .

هذا شروع فى بيان الأسباب التى من أجلها تكون الأعمال خسيسة . وقد حصر الفارابى ذلك فى ثلاثة أسباب :

الأول : أن تكون خسة الأعمال ناشئة عن خسة موضوعاتها أى خسة مادتها وما تشتمل عليه ؛ وإن كانت وظائفها كبيرة الأهمية . وذلك كالعمل الذى تقوم به المثانة والأمعاء السفلى فى البدن ؛ فأعمال هذين العضوين

---

(١) فى النسخة المتداولة «فان» وهو خطأ مطبعى وصوابه «وان» .

خسيسة لأنها تدور حول مواد خسيسة وإن كانت وظيفتهما جليلة الشأن فى قوام البدن .

الثانى : أن تكون خسة الأعمال ناشئة عن قلة غنائها وضعف أهميتها وجدواها .

الثالث : أن تكون خستها ناشئة عن سهولتها ، وأنها لا تتطلب كبير جهد فى القيام بها .

تلك هى الأسباب التى يعزو إليها الفارابى خسة الأعمال . وقد لاحظنا أنه ضرب لبعضها أمثلة مستمدة من أعضاء البدن ، ثم بين أن هـذه القواعد نفسها تصدق على أفراد المدينة وأعمالهم فقال : « كذلك فى المدينة » . أى إن خسة الأعمال التى يقوم بها بعض أفراد المدينة ترجع كذلك إلى أحد هذه الأسباب الثلاثة .

* * *

« وكذلك كل جماعة(١) كانت أجزاؤها مؤتلفة منتظمة مرتبطة بالطبع فإن لها رئيساً حاله من سائر الأجزاء هذه الحال » .

يطبق الفارابى هذه الفكرة تطبيقاً أعم فى مختلف المجتمعات الإنسانية ، فيقرر أن هذه الحال ، أى حال الرئيس ، بالنسبة إلى الأجزاء والوظائف التى يقوم

---

(١) فى النسخة المتداولة « كل جملة » ؛ وهو على ما يظهر خطأ مطبعى ، وصوابه « كل جماعة » ؛ وان كان من الممكن ابقاؤها على ما هى عليه وتأويل التعميم الذى يقصده الفارابى تأويلا آخر يشمل كل جملة من الأشياء تتألف من عناصر مرتبطة .

بها ويقوم بها غيره ، ليست مقصورة على المدينة، بل إنها تصدق كذلك على كل جماعة منتظمة الأجزاء مرتبطة بالطبع بأن كانت أعمالها متشابكة بطبيعتها وتهدف مع تفاوت مراتبها إلى غرض واحد . فلا بد أن يكون لكل جماعة هذا شأنها رئيس حاله من سائر أجزاء الجماعة هذه الحالة التى تقدم وصفها بصدد البدن والمدينة .

* * *

« وتلك أيضاً حال الموجودات . فإن السبب الأول نسبته إلى سائر الموجودات كنسبة ملك المدينة الفاضلة إلى سائر أجزائها . وإن[1] البرية من المادة تقرب من الأول[2] ، ودونها الأجسام السماوية ، ودون السماوية الأجسام الهيولانية » .

يقتضى شرح ذلك كلمة موجزة عن رأى الفارابى فى أقسام الموجودات ومراتبها :

يذهب الفارابى إلى أن الموجودات قسمان : موجودات روحية ، وموجودات مادية .

(أما القسم الأول) وهو الموجودات الروحية فيرتب طوائفه من الأعلى إلى الأقل منه ترتيباً تنازلياً فى ست مراتب على الوجه الآتى :

١ — المرتبة الأولى الكائن الأول أو السبب الأول وهو الله تعالى .

٢ — المرتبة الثانية مرتبة العقول التسعة المحركة للأجرام السماوية ،

---

(١) فى النسخة المتداولة « فان » وصوابه « وان » .

(٢) أى من السبب الأول وهو الله تعالى أى انها أقرب الأشياء المادية الى السبب الأول .

وهى : العقل الأول المحرك للسماء الأولى ؛ والعقل الثانى المحرك لكرة الكواكب الثابتة ؛ والعقل الثالث المحرك لكرة زحل (Saturne) ؛ والعقل الرابع المحرك لكرة المشترى (Jupiter) ؛ والعقل الخامس المحرك للمريخ (Mars) ؛ والعقل السادس المحرك للشمس ؛ والعقل السابع المحرك للزهرة (Venus) ؛ والعقل الثامن المحرك لعطارد (Mercure) ؛ والعقل التاسع المحرك للقمر .

٣ — المرتبة الثالثة : مرتبة العقل الفعال فى الإنسانية .

٤ — المرتبة الرابعة : مرتبة النفس الإنسانية .

٥ ، ٦ — المرتبتان الخامسة والسادسة : مرتبتا الهيولى والصورة . والهيولى هو المبدأ الأول الذى به تشترك الأجسام فى كونها أجساماً ؛ والصورة هى المبدأ الذى يعيِّن الهيولى ويعطيها ماهية خاصة .

هذا ، والمراتب الثلاث الأولى وهى مراتب الله تعالى والعقول العشرة هى فى نظر الفارابى مراتب روحية محضة ، أى لا صلة لها بالمادة مطلقاً ؛ على حين أن المراتب الثلاث الأخيرة تتصل بالأجسام على الرغم من أنها فى ذاتها أمور روحية أو معنوية غير جرمية .

(وأما القسم الثانى) وهو العالم المادى فيرتب الفارابى كذلك طوائفه من الأعلى إلى الأخس ترتيباً تنازلياً فى ست مراتب على الوضع الآتى :

المرتبة الأولى أجسام الأناسى ؛ والمرتبة الثانية أجسام الحيوانات الأخرى ؛ والمرتبة الثالثة أجسام النباتات ؛ والمرتبة الرابعة أجسام المعادن ؛ والمرتبة الخامسة الأجرام السماوية نفسها ؛ والمرتبة السادسة المواد الأولية المشتركة وهى الماء والهواء والتراب والنار وما جانسها كالبخار واللهب .

والفارابى فى العبارة التى نحن بصدد شرحها يمعن فى تطبيق فكرته السابقة ، ويتمثلها فى دائرة أوسع وأشمل ، فيقرر أن ما يصدق على القلب وأجزاء الجسم

وعلى رئيس المدينة وأفرادها وعلى رئيس أية جماعة وأفراد هذه الجماعة، يصدق كذلك على جميع الموجودات بالنسبة إلى سببها الأول وهو الله تعالى. مباشرة كما ينبثق الضوء عن الشمس وتفعل أفعالها وفق غرضه بدون واسطة. فالعقول تنبثق عن الله تعالى فهى فى المرتبة الثانية بعده وأفعالها أشرف أفعال الكائنات الأخرى جميعها، ويليها فى ذلك النفس الإنسانية ... وهكذا حتى آخر المراتب الروحية. ومثل ذلك يقال فى المراتب المادية التى عنى الفارابى هنا بتفصيلها. فالبرية (ويقصد بها أجسام الأناسى والحيوانات والنباتات) من بين مراتب الأشياء المادية هى أرقاها جميعاً وأقربها إلى السبب الأول وهو الله تعالى. ودونها فى ذلك الأجسام السماوية. وأبعدها جميعاً مرتبة عن السبب الأول الأجسام الهيولانية أى المواد الأولية التى تشترك فيها الموجودات المادية، وهى الماء والهواء والتراب والنار وما تولد منها كاللهب والبخار.

* * *

« وكل هذه تحتذى حـــذو السبب الأول وتؤمه وتقتفيه، ويفعل ذلك كل موجود بحسب قوته. إلا أنها تقتفى الغرض بمراتب. وذلك أن الأخس يقتفى غرض ماهو فوقه قليلا، وذلك يقتفى غرض ما هو فوقه، وأيضاً كذلك للثالث غرض ما هو فوقه، إلى أن تنتهى إلى التى ليس بينها وبين الأول واسطة أصلا. فعلى هذا الترتيب تكون الموجودات كلها تقتفى أثر السبب الأول ».

بعد أن بين مراتب الموجودات بالنسبة للسبب الأول أراد أن يوضح مراتبها بالنسبة لما يصدر عنها من أعمال. فقرر أن سائر الموجودات تهدف فى كل ما يصدر عنها إلى اقتفاء أثر السبب الأول وتحقيق أغراضه، ويفعل ذلك كل موجود منها بحسب ما أودع فيه من قوة وبحسب مرتبته. وذلك

أن كل كائن منها يقتنى أثر ما هو أعلى منه مرتبة ويحقق أغراضه . حتى نصل إلى أرقاها مرتبة وهى العقول التى تحقق غرض الله تعالى وتقتنى أثره مباشرة بدون واسطة .

* * *

« فالتى أعطيت كل ما به وجودها من أول الأمر(١) فقد احتذى بها من أول أمرها حذو الأول ومقصده ، فعادت وصارت فى المراتب العالية . وأما التى لم تعط من أول الأمر كل ما به وجودها(٢) فقد أعطيت قوة تتحرك بها نحو ذلك الذى يتوقع نيله ويقتنى فى ذلك ما هو غرض الأول(٣) » .

أى إن الكائنات التى كملت مقومات وجودها الذاتى ، وهى التى ليس بينها وبين الأول واسطة ، قد هيئت بطبعها من أول أمرها لاقتفاء السبب الأول وتحقيق مقاصده بدون واسطة ، فصارت بذلك فى أعلى مرتبة بعد السبب الأول . وأما الكائنات التى لم تخلق من أول الأمر مستكملة لمقومات وجودها الذاتى المستقل ، وهى التى بينها وبين الأول واسطة ، فقد أعطيت قوة تتجه بها نحو هذه الواسطة ، أى نحو الكائن الذى يتجه إلى السبب الأول ويعمل على نيله والاتصال به ويقتفى أغراضه . فالنفس الإنسانية مثلا أعطيت قدرة تتوصل عن طريقها إلى اقتفاء أثر العقول ، أى أثر الكائنات التى تنبثق عن السبب الأول مباشرة وتتجه نحوه وتقتفى أغراضه .

* * *

---

(١) وهى التى ليس بينها وبين الأول واسطة .
(٢) وهى التى بينها وبين الأول واسطة .
(٣) أى تتحرك بها نحو الكائن الذى يتجه الى السبب الأول ويعمل على نيله والاتصال به ويقتفى أغراضه .

« وكذلك ينبغى أن تكون المدينة الفاضلة : فإن أجزاءها كلها ينبغى أن تحتذى بأفعالها حذو مقصد رئيسها الأول على الترتيب » .

يعود إلى التنظير مرة أخرى فيقرر أن أجزاء المدينة الفاضلة تحتذى بأفعالها على اختلاف مراتبها حذو رئيسها الأول على الترتيب ؛ أى إن كل طبقة من طبقاتها تقتفى أثر الطبقة التى هى أعلى منها مرتبة ، حتى نصل إلى أعلاها فنراها تتألف من أفراد يتصلون بالرئيس مباشرة ويحتذون حذوه ويقتفون أغراضه بدون واسطة .

* * *

« ورئيس المدينة الفاضلة ليس يمكن أن يكون أى إنسان اتفق . لأن الرياسة إنما تكون بشيئين : أحدهما أن يكون بالفطرة والطبع معداً لها ؛ والثانى بالهيئة والملكة الإرادية . والرياسة إنما(١) تحصل لمن فطر بالطبع (وصار بالهيئة والملكة الإرادية)(٢) معداً لها . فليس كل صناعة يمكن أن يُرأس بها . بل أكثر الصنائع صنائع يُخدم بها فى المدينة(٣) ؛ فأكثر(٤) . الفطر

---

(١) فى النسخة المتداولة « والرياسة التى تحصل » وهو خطأ مطبعى وصوابه « والرياسة انما تحصل » .

(٢) الجملة الموضوعة بين قوسين غير موجودة فى النسخة المتداولة ، ويظهر أن ذلك نتيجة سقط مطبعى لأن عليها يتوقف المعنى ، اذ المقصود أن الرياسة انما تحصل لمن توافر فيه الشرطان السابقان معا .

(٣) وأصحاب هذا النوع من الصنائع لا يصلحون لرياسة المدينة وان كانت كل طبقة منهم ترأس ما تحتها .

(٤) فى النسخة المتداولة « وأكثر الفطر » ، والأوضح « فأكثر الفطر » أو « لأن أكثر الفطر » لأن هذه الجملة تعليل لما قبلها .

(والملكات الإرادية[١]) هى فطر الخدمة (وملكاتها[٢]) . وفى الصنائع صنائع يُرأس بها ويُخدم بها صنائع أخر . وفيها صنائع يُخدم بها فقط ولا يُرأس بها أصلا[٣] . فكذلك ليس يمكن أن تكون صناعة رياسة المدينة الفاضلة أى صناعة ما اتفقت ولا أى ملكة[٤] ما اتفقت . وكما أن الرئيس الأول فى جنس لا يمكن أن يرأسه شىء من ذلك الجنس (مثل رئيس الأعضاء فإنه هو الذى لا يمكن أن يكون عضو آخر رئيساً عليه ؛ وكذلك كل رئيس فى الجملة[٥]) كذلك الرئيس الأول للمدينة الفاضلة ، ينبغى أن تكون صناعته صناعة لا يمكن أن يُخدم بها أصلا ولا يمكن فيها أن ترأسها صناعة أخرى أصلا ، بل تكون صناعة نحو غرضها تؤم الصناعات كلها ، وإياه[٦] يقصد بجميع أفعال المدينة الفاضلة . ويكون ذلك الإنسان إنساناً لا يكون يرأسه إنسان أصلا » .

(١و٢) الموضوع بين قوسين غير موجود فى النسخة المتداولة ولكنه يكمل المعنى المقصود كما لا يخفى .

(٣) وكلا هذين النوعين من الصناعات يختلف عن صناعة رئيس المدينة ولا يصلح أهله لرياسة المدينة .

(٤) فى النسخة المتداولة « مملكة » وهو خطأ مطبعى وصوابه « ملكة » .

(٥) المحصور بين قوسين موجود فى النسخة المتداولة ، وانما وضعناه بين قوسين لأنه أمثلة تعترض شطرى الجملة .

(٦) الضمير يعود على غرضها .

لايصلح لرياسة المدينة الفاضلة أى إنسان ، لأن الصلاحية لهذه الرياسة لاتتحقق إلا إذا توافر شرطان : أحدهما كمال الاستعداد لها بحسب الفطرة والطبع ؛ والآخر كمال التهيئة لها بما يكتسب من ملكات إرادية ، فلا يصلح إذن لرياسة المدينة إلا من كان معداً لهذه الرياسة بفطرته وطبعه ومهيئاً لها بما اكتسبه من صفات . وهذا لايتحقق إلا فى القليل النادر من الصناعات ، لأن أكثر الصناعات صناعات يُخدم بها فى المدينة ولا تصلح للرياسة المطلقة ، وذلك لأن معظم الفطر والملكات الإرادية هى فطر الخدمة وملكاتها لا فطر الرياسة ومقتضياتها ، وهذه الصناعات الخادمة تنقسم قسمين : فمنها مايخدم بعض الصناعات ويرأس بعضها الآخر ؛ ومنها مايخدم فقط ولايرأس غيره أصلا . وكلا هذين النوعين يختلف عن صناعة رياسة المدينة ، ولايصلح أهله لهذه الرياسة . فصناعة الرياسة لايمكن إذن أن تكون أى صناعة ما اتفقت ولاى ملكة ما اتفقت ، ولا يمكن أن تتحقق إلا فى إنسان خلق وهيىء للرياسة المطلقة وتجرد من كل شائبة من الخدمة . فكما أن الرئيس الأول من أى جنس لايمكن أن يرأسه غيره من ذلك الجنس (كرئيس الأعضاء الذى لايمكن أن يكون عضو آخر رئيساً عليه ، وكرئيس أية مجموعة كائنة ما كانت) كذلك الرئيس الأول للمدينة الفاضلة ؛ ينبغى أن تكون صناعته سيدة الصناعات على الإطلاق لاتستخدمها غيرها ، ولا ترأسها صناعة أخرى ؛ بل تتجه الصناعات الأخرى جميعاً نحو غرضها ؛ وتسير جميع أفعال المدينة الفاضلة إلى الهدف الذى تقصده ، وينبغى أن يكون هو السيد على الإطلاق الذى لايمكن أن يرأسه إنسان فى المدينة .

* * *

هذا ويتوقف فهم العبارة التالية على ذكر كلمة مجملة عما يعنيه الفارابى من الكلمات الآتية : النفس الناطقة ؛ العقل المنفعل بالفعل ؛ العقل المستفاد ؛ العقل الفعال ؛ القوة المتخيلة .

١ — أما النفس الناطقة : فهى القوة التى يكون بها الإدراك والفهم والتفكير ؛ وهى التى « يمكن بها أن تُعقل المعقولات ويُميِّز بين الجميل والقبيح ، وبها يحوز الإنسان الصناعات والعلوم »(١) وهى الهيئة الطبيعية التى يشترك فيها جميع الأناسى ويمتاز بها الإنسان عن سائر أصناف الحيوان . ويتصل بهذه القوة ناحية من القوة النزوعية وهى النزوع إلى علم شىء ما ، وهذه أيضاً خاصة بالإنسان (٢) .

والإنسان الذى لا يكون له إلا قوته الناطقة فى صورتها القابلة للتفكير بالقوة فقط هو فى أحط مراتب الإنسانية ، ويكون بينه وبين العقل الفعال (الذى سنشرحه فى الفقرة الخامسة) رتبتان اثنتان .

٢ — العقل المنفعل (بالقوة) : هو القوة القابلة لتلقى المعقولات والانفعال بها ؛ وهو النفس الناطقة ذاتها إذا نظر إليها من ناحية أنها تتلقى المعقول وتنفعل به . والإنسان الذى لا يكون لديه إلا العقل المنفعل بالقوة أى القابل لتلقى المعقولات والانفعال بها يكون كذلك فى أحط درجات الإنسانية ؛ ويكون بينه وبين العقل الفعال (الذى سنشرحه فى الفقرة الخامسة) رتبتان اثنتان .

٣ — العقل المنفعل بالفعل : وهو القوة السابق شرحها بعد أن تتأثر بالمعقولات بالفعل . والإنسان الذى يكون لديه العقل المنفعل بالفعل يكون

---

(١) انظر « القول فى أجزاء النفس الانسانية وقواها » فى هذا الكتاب .

(٢) أما ما عدا هذه الناحية من القوة النزوعية فليس خاصا بالانسان ؛ وذلك كالنزوع الى عمل شىء ما أو الى احساسه . هذا ويشترك الحيوان مع الانسان فى قوى أخرى منها : « القوة الغاذية » وهى التى يكون بها التغذية والنمو ؛ « القوة الحاسة » وهى التى يكون بها ادراك المحسات البصرية والسمعية والشمية والذوقية واللمسية ... الخ . (انظر « القول فى أجزاء النفس الانسانية وقواها » فى هذا الكتاب) .

فى المرتبة الثانية ، ويكون بينه وبين العقل الفعال درجة واحدة .

٤ — العقل المستفاد : هو العقل المنفعل بالفعل إذا استكمل بالمعقولات كلها وحصل على جميع المعلومات وأشرق عليه العقل الفعال بجميع الكليات . والإنسان الذى يتوافر لديه العقل المستفاد يكون قد وصل إلى أرقى درجة من الحكمة وبلغ مرتبة الامتزاج بالعقل الفعال نفسه ؛ فيصبح إلى مرتبة العقول أدنى منه إلى مرتبة المادة ، ويصبح روحاً أكثر منه جسما ، ويصبح هو نفسه عقلا ومعقولا بالفعل ، ويصبح المعقول منه هو الذى يعقل : يصبح عقلا لامتزاجه بالعقل الفعال ؛ ومعقولا لإدراكه جميع المعقولات ؛ ويصبح المعقول منه هو الذى يعقل لأن جميع المعقولات هى التى كونت الناحية العاقلة منه .

٥ — العقل الفعال : وهو أحد العقول التى تنبثق عن الله تعالى كما ينبثق الضوء عن الشمس ، وهو المشرف على الإنسانية ؛ وعن طريقه تصل العقول الحادثة . عقول الأناسى أو العقول المنفعلة ، إلى المعلومات والمعقولات الجزئية والكلية . فهو الذى يوجهها إلى المدركات ويوحى بها إليها ، ويشرق عليها بالمعقولات . وإذا أشرق العقل الفعال على عقل حادث بجميع المعقولات يكون قد بلغ به إلى أرقى درجة من الحكمة على النحو الذى سبق شرحه فى الفقرة السابقة .

٦ — القوة المتخيلة : « هى التى تحفظ المحسوسات بعد غيبتها عن الحس... فتفرد بعضها عن بعض ، وتركب بعضها إلى بعضها تركيبات مختلفة يتفق فى بعضها أن تكون موافقة لما أحس وفى بعض تكون مخالفة المحسوس »(١) ، — هذا ، وبفضل القوة المتخيلة تستطيع النفوس التى صفا معدنها ، وهى نفوس الحكماء والفلاسفة الذين زودهم الله بحاسة إدراك المعقولات المحضة

---

(١) انظر « القول فى أجزاء النفس الانسانية وقواها » فى هذا الكتاب .

والمعانى الكلية ، أن تتذكر ما أدركته فى العالم العلوى قبل اتصالها بالأجسام من جزئيات ومعقولات كلية . ويتم لها هذا التذكر فى اليقظة أحياناً ، وفى النوم أحياناً أخرى . وتتذكر الجزئيات إذا عرضت لها هى نفسها أو عرض لها ما يحاكيها . أما الكليات أو المعقولات أو المثُل فتتذكرها إذا عرض لها فى عالمها هذا ما يحاكيها . ويتم هذا التذكر بدون جهد ولا عناء ؛ بل عن طريق إشراق يفيض به العقل الفعال على هذه النفوس . وأما نفوس العاديين من الناس فهى غير صالحة لتذكر ما أدركته فى عالمها الأول من مُثُل .

وهذا ، ولا يصلح لرياسة المدينة الفاضلة إلا من بلغ عقله المنفعل وبلغت قوته المتخيلة أقصى درجات الكمال . وبلوغ العقل المنفعل أقصى درجات الكمال يكون بامتزاجه بالعقل الفعال امتزاجاً يجعله يستحيل إلى عقل ويفيض عليه بالمعقولات كلها ، فيصبح بذلك حكيما وفيلسوفاً ومتعقلا على التمام . وبلوغ قوته المتخيلة أقصى درجات الكمال يكون بتذكرها المعقولات والمثل التى سبق أن أدركتها النفس فى عالمها الأول قبل أن تتصل بالأجسام تذكراً يفيض عليها به العقل الفعال عن طريق الإشراق ، فينكشف بذلك الحجاب عن صاحبها ، ويصبح فى مرتبة الأنبياء المصطفين .

هذا هو أول الشروط التى يجب توافرها فى رئيس المدينـــة الفاضلة . ويشترط فيه بجانب ذلك شروط أخرى أشار الفارابى إلى بعضها فى نهاية هذا القول ، وفصّلها تفضيلا فى القول التالى .

* * *

« وإنما يكون ذلك الإنسان إنساناً قد استكمل(١) فصار عقلا ومعقولا بالفعل » .

---

(١) الأوضح فى « استكمل » أن يكون بالبناء للمجهول .

ينبغى أن يكون رئيس المدينة قد وصل إلى أرقى درجات الكمال الإنسانى ؛ فامتزج بالعقل الفعال حتى أصبح هو نفسه عقلا وأحاط علماً بجميع المعقولات حتى أصبح بانطوائه عليها يمثل المعقول المطلق ؛ فهو بذلك يصير عقلا ومعقولا بالفعل . ولا يتم له ذلك إلا إذا توافرت صفات فى قوته المتخيلة وصفات فى عقله المنفعل . وقد أشار إلى ما يتعلق بالقوة المتخيلة بقوله :

* * *

« وقد استكملت قوته المتخيلة بالطبع غاية الكمال على ذلك الوجه الذى قلنا . وتكون هذه القوة منه معدة بالطبع لتتقبل ، إما فى وقت اليقظة أو فى وقت النوم ، عن العقل الفعال ، الجزئيات ، إما بنفسها وإما بما يحاكيها ، ثم المعقولات بما يحاكيها » .

فيجب أولا أن تكون قوته المتخيلة قد بلغت بطبعها أقصى درجات الصفاء والكمال ، فتصبح مهيئة لتلقى ما يشرق عليها به العقل الفعال ويوحى به إليها من حقائق جزئية أو كلية فى حالة اليقظة عن طريق الإدراك العادى وفى حالة النوم عن طريق الأحلام . وتمثل هذه الحقائق ما سبق للنفس أن أدركته فى عالمها الأول قبل أن تتصل بالجسد ؛ فبفضل صفائها وإشراق العقل الفعال عليها تتذكر هذه المدركات . وهى تتذكر المدركات الجزئية إذا عرضت أمامها فى عالمها هذا أو عرض أمامها ما يشبهها . أما المدركات الكلية أو المعقولات المحضة أو المثل فتتذكرها إذا عرض أمامها فى عالمها هذا

ما يحاكيها ، لأنها هى نفسها لا وجود لها فى هذا العالم . هذا هو ما يتصل بالقوة المتخيلة للرئيس .

وأما ما يتصل بعقله المنفعل فقد أشار له بقوله :

* * *

« وأن يكون عقله المنفعل قد استكمل[1] بالمعقولات كلها حتى لا يكون يخفى[2] عليه منها شىء ، وصار عقلا بالفعل . فأى إنسان استكمل عقله المنفعل بالمعقولات كلها صار عقلا ومعقولا بالفعل ، وصار المعقول منه هو الذى يعقل ؛ حصل له حينئذ عقل ما بالفعل رتبته فوق العقل المنفعل ، أتم[3] وأشد مفارقة للمادة ومقاربة من العقل الفعال ، ويسمى العقل المستفاد ويصير متوسطاً بين العقل المنفعل والعقل الفعال ، ولا يكون بينه وبين العقل الفعال شىء آخر » ،

ويجب كذلك فى رئيس المدينة أن يكون عقله المنفعل قد بلغ غاية الكمال ، فأحاط علماً بالمعقولات كلها حتى أصبح لا يعزب عنه شىء منها وأصبح عقله المنفعل (بالقوة) عقلا بالفعل بعد أن كان مجرد قابل للتعقل والانفعال . وأى إنسان يبلغ هذه المنزلة ، فيحيط عقله المنفعل بكل شىء علماً ، يمتزج

---

(١) الأظهر أن يكون مبنيا للمجهول .
(٢) فى النسخة المتداولة « ينفى » والأوضح ما أثبتناه .
(٣) صفة لـ « عقل » ما بالفعل .

هو نفسه بالعقول فيصبح عقلا ، ويصير بانطوائه على جميع المعقولات ممثلا للمعقول المطلق : أى يستحيل إلى عقل ومعقول معاً ، ويصبح المعقول منه هو الذى يعقل ، لأن جميع المعقولات هى التى كونت الناحية العاقلة منه . والعقل الذى يتوافر هذا لديه تكون مرتبته فوق مرتبة العقل المنفعل ، وهو أصفى منه معدناً وأتم طبيعة وأشد مفارقة للمادة ، وأدنى إلى العقل الفعال ؛ ويسمى العقل المستفاد . وهو فى منزلة متوسطة بين العقل المنفعل والعقل الفعال ، وليس بينه وبين العقل الفعال واسطة .

* * *

« فيكون العقل المنفعل كالمادة والموضوع للعقل المستفاد ؛ والعقل المستفاد كالمادة والموضوع للعقل الفعال ؛ والقوة الناطقة التى هى هيئة طبيعية تكون مادة وموضوعة(١) للعقل المنفعل الذى هو بالفعل عقل » .

فالنفس الناطقة فى أبسط صورها ، أى فى صورة قوة قابلة للإدراك والتعقل ، هى دون العقل المنفعل بالفعل أى الذى أدرك وفهم ، وهى مادته وموضوعه لأنها هى التى يعتمد عليها فى إدراكه ؛ والعقل الذى انفعل بالفعل ، أى أدرك وفهم ، هو فى مرتبة دون مرتبة العقل المستفاد (أى الذى أحاط بكل شىء علما) وهو مادته وموضوعه لأنه يعتمد عليه فى الإحاطة بكل شىء . والعقل المستفاد هو دون مرتبة العقل الفعال ، وهو مادته وموضوعه ،

---

(١) فى النسخة المتداولة « موضوعة » بدون واو العطف والأصح ما أثبتناه .

إذ بفضله يتم اتصال العقل الفعال بعقول البشر ، وعن طريقه يتاح المجال لأعمال العقل الفعال وإشراقاته .

* * *

« وأول الرتبة التى بها الإنسان إنسان هو أن تحصل الهيئة الطبيعية القابلة المعدة لأن يصير عقلا بالفعل » .

وهى النفس الناطقة فى أبسط صورتها القابلة للإدراك .

« وهذه هى المشتركة للجميع » .

لأنها بصورتها هذه يشترك فيها جميع الأناسى ويمتاز بها الإنسان عن سائر أصناف الحيوان .

« فبينها وبين العقل الفعال رتبتان : أن يحصل العقل المنفعل بالفعل ؛ وأن يحصل العقل المستفاد . وبين هذا الإنسان الذى بلغ هذا المبلغ من أول رتبة الإنسانية وبين العقل الفعال رتبتان » .

فالنفس الناطقة فى أول صورة لها بينها وبين العقل الفعال درجتان : أولاهما أن تدرك بالفعل فتصبح عقلا منفعلا بالفعل ؛ وثانيهما أن تحيط علماً بكل شىء فتصبح عقلا مستفاداً . والإنسان الذى ليس لديه إلا قوته الناطقة فى صورتها القابلة للإدراك فحسب هو فى أدنى مراتب الإنسانية ويفصله عن العقل الفعال منزلتان .

* * *

« وإذا جعل العقل المنفعل الكامل والهيئة الطبيعية كشيء واحد على مثال ما يكون المؤتلف من المادة والصورة شيئاً واحداً ، وإذا أخذ هذا الإنسان صورة إنسانية هو العقل المنفعل الحاصل بالفعل كان بينه وبين العقل الفعال رتبة واحدة فقط » .

وإذا بلغت الهيئة الطبيعية (التى هى النفس الناطقة القابلة للإدراك والتى هى مادة العقل المنفعل) منزلة العقل المنفعل بالفعل فأدركت المعقولات ، واعتبرناها هى والعقل المنفعل بالفعل نفسه شيئاً واحداً على غرار اعتبار المادة والصورة شيئاً واحداً ، وتوافر هذا الشيء فى إنسان ، كان هذا الإنسان فى مرتبة أرقى من مرتبة الإنسان السابق ذكره ، ويكون بينه وبين العقل الفعال منزلة واحدة فقط .

* * *

« وإذا جعلت الهيئة الطبيعية مادة العقل المنفعل الذى صار عقلا بالفعل ، والمنفعل مادة المستفاد ، والمستفاد مادة العقل الفعال ، وأخذت جملة ذلك كشيء واحد ، كان هذا الإنسان هو الذى حل فيه العقل الفعال » .

وإذا بلغت الهيئة الطبيعية منزلة العقل المنفعل بالفعل ، وبلغ هذا العقل منزلة العقل المستفاد ، وامتزج العقل المستفاد بالعقل الفعال ، وتوافر هذا كله فى إنسان فإن هذا الإنسان يتحد بالعقل الفعال ، ويحل فيه العقل الفعال .

* * *

« وإذا حصل ذلك فى كلا جزئى قوته الناطقة ، وهما النظرية والعملية(١) ، ثم فى قوته المتخيلة ، كان هذا الإنسان هو الذى يوحى إليه . فيكون الله عز وجل يوحى إليه بتوسط العقل الفعال . فيكون ما يفيض من الله تبارك وتعالى إلى العقل الفعال يفيضه العقل الفعال إلى عقله المنفعل بتوسط العقل المستفاد ثم إلى قوته المتخيلة . فيكون بما يفيض منه(٢) إلى عقله المنفعل حكيماً فيلسوفاً ومتعقلا على التمام ، وبما يفيض منه إلى قوته المتخيلة نبياً منذراً بما سيكون ومخبراً بما هو الآن من الجزئيات بوجود يعقل فيه الإلهى(٣) . — وهذا الإنسان هو فى أكمل مراتب الإنسانية وفى أعلى درجات السعادة . وتكون نفسه متحدة بالعقل الفعال على الوجه الذى قلنا . وهذا الإنسان هو الذى يقف على كل فعل يمكن أن يُبلغ به السعادة . — فهذا أول شرائط الرئيس » .

وإذا تم اتحاد هذا الإنسان بالعقل الفعال عن طريق قوته الناطقة بناحيتيها النظرية والعملية وعن طريق قوته المتخيلة أصبح هذا الإنسان مهيئاً

---

(١) يقصد بالعملية الناحية النزوعية المتصلة بالفكر والتى تتمثل فى النزوع الى فهم شىء ما . أما النواحى الأخرى من القوة العملية النزوعية وهى التى تتمثل فى عمل شىء ما أو احساس شىء ما فليست من القوة الناطقة فى شىء (انظر الفقرة الأولى من صفحة ٥٥ والمدون فى تعليقها الثانى) .

(٢) أى من الله سبحانه وتعالى .

(٣) فى هذه العبارة : « من الجزئيات بوجود يعقل فيه الالهى » ، المثبتة على هذه الصورة فى النسخة المتداولة ، تحريف لم نتبين صوابه .

لتلقى الإشراق والوحى عن الله تعالى ، بتوسط العقل الفعال . فما يفيضه الله تعالى على العقل الفعال يفيضه العقل الفعال على العقل المنفعل لهذا الإنسان بتوسط عقله المستفاد وعلى قوته المتخيلة ، ويصبح هذا الإنسان حكيما وفيلسوفاً وكامل التعقل ، بما يفيضه الله تعالى على عقله المنفعل من حقائق تنتظم جميع المعقولات ، كما يصبح نبياً مطلعاً على ما سيكون وعالماً بما هو كائن ، بما يفيضه الله تعالى على قوته المتخيلة من إشراق يكشف عنه الحجاب ويذكّر نفسه بما سبق أن أدركته فى عالم المعقولات والمثل وفى اللوح المحفوظ قبل أن تتصل بالجسم . وهذا الإنسان هو فى أكمل مراتب الإنسانية وفى أعلى درجات السعادة(١) إذ لا يكون بينه وبين العقل الفعال واسطة بل يتحد بالعقل الفعال حتى إنه ليصبح جزءاً منه .

وهذا الصنف من بنى الإنسان هم الذين يتاح لهم وحدهم الوقوف على السبل المؤدية إلى السعادة ، ولذلك كانوا وحدهم هم الصالحين لشئون رياسة المدن الفاضلة وتوجيهها إلى أمثل طريق . ومن ثم كان بلوغ هذه المنزلة هو أول الشروط التى يجب توافرها فى رئيس المدينة الفاضلة .

هذا ، ويلاحظ أن الشرط الروحى قد انفرد الفارابى باشتراطه فى رئيس المدينة الفاضلة دون فلاسفة اليونان الذين اغترف فلسفته من معينهم ؛ فلم يرد لمثل هذا الشرط ذكر فى جمهورية أفلاطون التى اعتمد عليها الفارابى اعتماداً كبيراً . ويظهر أنه استمد هذا الشرط مما فهمه عن روح الدين الإسلامى وما سار عليه العمل فى صدر الإسلام إذ تولى الرياسة الرسول عليه السلام ومن بعده خلفاؤه الراشدون الذين وصلت نفوسهم إلى أرقى درجات الصفاء والكمال .

---

(١) السعادة عند الفارابى ، كما هى عند أفلاطون وأرسطو ، أن يتاح للانسان القيام بأعماله الخاصة به (أى التى تميز انسانيته) على وجه كامل . ومن الواضح أن الانسان الذى بلغ أرقى درجات الانسانية هو الذى يتاح له القيام بهذه الأعمال على أكمل وجه . فهو اذن فى أرقى درجات السعادة .

« ثم أن يكون له مع ذلك قدرة بلسانه على جودة التخيل[١] بالقول لكل ما يعلمه ، وقدرة على جودة الإرشاد إلى السعادة وإلى الأعمال التى بها يبلغ السعادة . وأن يكون له مع ذلك جودة ثبات ببدنه[٢] لمباشرة أعمال الحرب[٣] » .

بعد أن فرغ الفارابى من الشرط الروحى الذى اشترطه فى الرئيس وانفرد به دون فلاسفة اليونان عرض للشروط الأخرى التى قال بمثلها أفلاطون من قبله . وقد أجمل طائفة من هذه الشروط فى العبارة السابقة ممهداً بذلك للتفاصيل التى سيعرض لها فى القول التالى ؛ وهو « القول فى خصال رئيس المدينة » .

ومعنى عبارته أنه يشترط بجانب الشرط السابق فى الرئيس أن تكون له قدرة على تصوير معلوماته وتوضيحها للناس على أكمل وجه وقدرة على الإرشاد إلى السبل والأعمال المؤدية إلى السعادة ، وأن يكون سليم البدن ، كامل الصحة لا يرهقه ما يجب أن يضطلع به من أعمال الحرب بوصفه قائداً أعلى لجيوشه .

وسيفصل هذا الإجمال فى القول التالى .

---

(١) يقصد بالتخيل تصوير الأشياء وتوضيحها ، ومعنى الجملة أن تكون له قدرة على تصوير ما يعلمه وتوضيحه بالعبارة على أكمل وجه .

(٢) يقصد كمال الصحة والاستقرار الجسمى .

(٣) فى النسخة المتداولة « أعمال الجزئيات » وصوابه ما أثبتناه كما يدل على ذلك ما ذكره فى القول التالى : « والسادس أن يكون له جودة ثبات ببدنه فى مباشرة أعمال الحرب وذلك أن تكون معه الصناعات الحربية الخادمة والرئيسة » (انظر أول ص ٧٤) .

— ٣ —

القول فى خصال رئيس المدينة

« فهذا هو الرئيس الذى لا يرأسه إنسان آخر أصلا ، وهو الإمام ؛ وهو الرئيس الأول للمدينة الفاضلة ؛ وهو رئيس الأمة الفاضلة ؛ ورئيس المعمورة من الأرض كلها » .

فهذا هو الإنسان الذى قد خلق للرياسة . فهو يرأس غيره ولا يمكن لغيره أن يرأسه . فهو إمام الناس . وخليق بمثله أن يكون رئيساً لمختلف المجتمعات الكاملة الفاضلة : مجتمع المدينة القاضلة ؛ ومجتمع الأمة الفاضلة ؛ ومجتمع المعمورة الفاضلة(١) .

* * *

« ولا يمكن أن تصير هذه الحال إلا لمن اجتمعت فيه بالطبع اثنتا عشرة خصلة قد فطر عليها » .

أخذ فى تفصيل الصفات التى يجب توافرها فى الرئيس بجانب الشرط الروحى السابق . فيجب أن تتوافر فيه اثنتا عشرة صفة فطرية أى منبعثة عن طريق الفطرة والطبع ، ويولد مزوداً بها . وسيذكر ، بعد أن يفرغ من هذه الصفات الفطرية ، أنه يشترط فيه كذلك ست صفات مكتسبة يحصل عليها بعد كبره .

---

(١) انظر تفصيل هذه المجتمعات فى صفحة ٣٥ وتوابعها .

أما الصفات الفطرية فتنقسم خمسة أقسام : قسم منها يتعلق بالجسم ؛ وقسم يتعلق بالعقل ؛ وقسم يتعلق بالقدرة على الإبانة وبلاغة التعبير ؛ وقسم يتعلق بحب التعلم ؛ وقسم يتعلق بالأخلاق .

أما ما يتعلق منها بالجسم فهى صفة واحدة ذكرها فى قوله :

* * *

« أحدها أن يكون تام الأعضاء ، قواها مواتية أعضاءها على الأعمال التى شأنها أن تكون بها[1] . ومتى همّ عضو من أعضائه بعمل يكون به أتى عليه بسهولة » .

وأما ما يتعلق منها بالعقل فهى ثلاث صفات : إحداها جودة الفهم ؛ وثانيتها جودة الحفظ ؛ وثالثتها جودة الفطنة والذكاء . وقد ذكرها فى قوله :

* * *

« ثم[2] أن يكون بالطبع جيد الفهم والتصور لكل ما يقال له ويتلقاه بفهمه على ما يقصده القائل وعلى حسب الأمر فى نفسه[3] » ،

« ثم أن يكون جيد الحفظ لما يفهمه ، ولما يراه ،

---

(١) أى أن تكون قوى الأعضاء مواتية لها على الأعمال التى خلقت لها والتى هى قوامها .

(٢) استخدم « ثم » هنا وفى جميع الصفات التالية لمجرد العطف ، ولم يقصد معناها الأصلى وهو الترتيب بمهلة . هذا الى أنها كثيرا ما تستعمل فى الجمل (غير المفردات) بمعنى الواو . وعباراته هذه من قبيل الجمل من بعض وجوهها .

(٣) أى يفهم ما يقصده منه القائل من جهة ويفهم من جهة أخرى مدى اتفاقه مع الواقع ونفس الأمر .

ولما يسمعه ، ولما يدركه فى الجملة ، فلا يكاد ينساه(١) » .

« ثم أن يكون جيد الفطنة ذكياً إذا رأى الشىء بأدنى دليل فطن له على الجهة التى دل عليها الدليل » .

وأما ما يتعلق منها بالقدرة على الإبانة وبلاغة التعبير فهى صفة واحدة ذكرها فى قوله :

* * *

« ثم أن يكون حسن العبارة يؤاتيه لسانه على إبانة كل ما يضمره إبانة تامة » .

وإما ما يتعلق منها بحب العلم والرغبة فى الاستزادة منه فهى صفة واحدة كذلك ذكرها فى قوله :

* * *

« ثم أن يكون محباً للعلم(٢) والاستفادة منقاداً له سهل القبول لا يؤلمه تعب التعلم(٣) ولا يؤذيه الكد الذى يناله منه » .

وأما ما يتعلق منها بالأخلاق فهى ست صفات ذكرها فى قوله :

---

(١) فى النسخة المتداولة « ولما يدركه ، وفى الجملة لا يكاد ينساه » وصوابه « ولما يدركه فى الجملة ، فلا يكاد ينساه » أو « ولا يكاد ينساه ». لأنه أراد أن يجمع فى قوله « ولما يدركه فى الجملة » جميع المدركات التى ذكر بعض أمثلتها فى قوله « لما يفهمه ولما يراه ولما يسمعه »؛ ثم شرح الدرجة التى تكون عليها جودة الحفظ بقوله « فلا يكاد ينساه » .

(٢) فى النسخة المتداولة « للتعليم » والأوضح ما أثبتناه .

(٣) فى النسخة المتداولة « التعليم » والأوضح ما أثبتناه .

« ثم أن يكون غير شره على المأكول والمشروب والمنكوح متجنباً بالطبع للعب[١] مبغضاً للذات الكائنة عن هذه[٢] » .

« ثم أن يكون محباً للصدق وأهله مبغضاً للكذب وأهله » .

« ثم أن يكون كبير النفس محباً للكرامة ؛ تكبر نفسه بالطبع عن كل ما يشين من الأمور وتسمو نفسه بالطبع إلى الأرفع منها » .

« ثم أن يكون الدرهم والدينار وسائر أعراض الدنيا هينة عنده » .

« ثم أن يكون بالطبع محباً للعدل وأهله مبغضاً للجور والظلم وأهلهما يعطى النَّصَف[٣] من أهله ومن غيره ويحث عليه ويؤتى من حل به الجور[٤] ، مواتياً[٥] لكل ما يراه حسناً

---

(١) يقصد اللهو وضياع الوقت فى اللذائذ وما لا يجدى .

(٢) اللذات جمع لذة ، والمعنى أن يكون مبغضا لما ينجم عن الأمور السابقة من لذات .

(٣) نصف فلانا ينصفه وينصفه بكسر الصاد وضمها نصفا (بفتح النون) ونصافا ونصافة (بكسر النون وفتحها فيهما) عامله بالعدل والقسط . وأنصفت الرجل عاملته بالعدل والقسط والاسم النصفة بفتح النون والصاد والفاء .

(٤) يؤتيه أى يعطيه والمفعول محذوف وتقديره يؤتيه الحق أى يرد له حقه وما أخذ منه .

(٥) حال من الرئيس ، والغرض من الحسن والجمال هنا ما يتصل منهما بالعدالة لأن الكلام فيها .

وجميلا . ويكون عدلا[1] غير صعب القياد ولا جموحاً ولا لجوجاً إذا دعى إلى العدل ، بل صعب القياد إذا دعى إلى الجور وإلى القبيح »

« ثم أن يكون قوى العزيمة على الشيء الذى يرى أنه ينبغى أن يفعل ، جسوراً عليه ، مقداماً غير خائف ولاضعيف النفس» .

وقد أحس الفارابى أنه من النادر أن يولد إنسان مزوداً بهذه الصفات كلها عن طريق فطرته فقال :

* * *

« واجتماع هذه كلها فى إنسان عسر ، فلذلك لا يوجد من فطر على هذه الفطرة إلاالواحد بعد الواحد والأقل من الناس» .

ومع ذلك فإنه يرى أن صلاحية الفرد للرياسة لا يكفى فيها هذه الصفات الفطرية المتعسر توافرها ، بل لا بد كذلك من أن تتوافر له بعد كبره ست صفات أخرى مكتسبه منها صفة الحكمة ، وهى الصفة الروحية التى تكلم عنها بتفصيل فى القول السابق .

* * *

« فإن وجد مثل هذا فى المدينة الفاضلة ثم حصلت فيه ، بعد

---

(١) العدل معناه الوسط فى الأمور كما سيفسره بالصفات التالية . وفى النسخة المتداولة « ثم أن يكون عدلا » والصواب ما أثبتناه لأنه قد جرت عادته فى هذه العبارة أن يستخدم « ثم » للفصل بين صفة وصفة ، ولسنا هنا بصدد صفة جديدة بل بصدد بيان وتوضيح للصفة نفسها .

أن يكبر ، تلك الشرائط الست المذكورة بعد[١] (أو الخمس منها دون الأنداد من جهة القوة المتخيلة[٢]) ؛ كان هذا الرئيس » .

ولما كان وجود إنسان كهذا متعسر كما ذكر هو فيما سبق ، فقد احتاط للحالة التى لا يتفق فيها وجود مثله ، فقال :

* * *

« وإن اتفق أن لا يوجد مثله فى وقت من الأوقات أخذت الشرائع[٣] والسنن التى شرعها هذا الرئيس وأمثاله إن كانوا توالوا فى المدينة فأثبتت » .

يقصد أنه فى هذه الحالة تسير المدينة على الشرائع التى شنها الرؤساء السابقون الذين كانت تتوافر فيهم جميع صفات الرياسة . وتظل المدينة على هذه الحال إلى أن يوجد من بين أهلها من يتوافر فيه أو من يتوافر فيهم هذه الصفات .

* * *

---

(١) فى النسخة المتداولة « المذكورة قبل » وصوابه « المذكورة بعد » لأن هذه الصفات لم يعرض لها فيما سبق وسيعرض لها فى الفقرة التالية .

(٢) المحصور بين قوسين موجود فى النسخة المتداولة وهو تحريف لم أتبين وجه الصواب فيه . وسيذكر فيما يلى أنه اذا توافرت الصفات الخمسة الأخيرة فى انسان وتوافرت الصفة الأولى وهى الحكمة فى انسان آخر اشتركا معا فى رياسة المدينة (انظر ص ٧٤) فيمكن أن تصلح العبارة حتى تؤدى هذا المعنى .

(٣) فى النسخة المتداولة « أخذت للشرائع » والصواب ما أثبتناه .

« ويكون الرئيس الثانى الذى يخلف الأول من اجتمعت فيه من مولده وصباه تلك الشرائط » .

يقصد الشرائط الفطرية السابق ذكرها .

* * *

« ويكون بعد كبره فيه ست شرائط » .

وهذه هى الصفات المكتسبة .

* * *

« أحدها أن يكون حكيماً » .

وهذه هى الصفة الروحية التى فصلها فى القول السابق : وهى أن يتم اتحاد هذا الإنسان بالعقل الفعال عن طريق قوته الناطقة والمتخيلة .

* * *

« والثانى أن يكون عالماً حافظاً للشرائع والسنن والسير التى دبرها(١) الأولون للمدينة محتذياً بأفعاله كلها حذو تلك بتمامها » .

أى أن يكون حافظاً لجميع الشرائع التى سنها الرؤساء السابقون لتنظيم المدينة حتى يتاح له أن يحتذى بأفعاله حذو هذه الشرائع على أكمل وجه .

* * *

« والثالث أن يكون له جودة استنباط فيما لا يُحفظ عن السلف فيه شريعة ، ويكون فيما يستنبطه فى ذلك محتذياً حذو الأئمة الأولين » .

---

(١) فى النسخة المتداولة « دبرتها » والأفضل « دبرها » .

وهذا هو ما يسميه علماء الأصول بالقياس . والرئيس فى هذا ليس مبتكراً ، بل يقيس ما لم يرد فيه نص عن سلفه بما يشبهه من الأمور التى ورد فيها نص عنهم .

* * *

« والرابع أن يكون له جودة روية وقوة استنباط لما سبيله أن يعرف فى وقت من الأوقات الحاضرة من الأمور والحوادث التى تحدث مما ليس سبيلها أن يسير فيه الأولون ، ويكون متحرياً(١) بما يستنبطه من ذلك صلاح حال المدينة » .

يقصد أن يكون له جودة روية تسمح له بتشريع مبتكر فى الأمور التى لم يحدث لها نظير فى عهد سلفه ، وما كان يمكن أن يحدث لها نظير لتعلقها بظواهر وشئون مستجدة لم يسر فى مثلها الأولون ولم تعهدها عصورهم ، على أن يتحرى فيما يستنبطه من ذلك صلاح حال المدينة .

* * *

« والخامس أن يكون له جودة إرشاد بالقول إلى شرائع الأولين وإلى التى استنبطت بعدهم مما احتُذى فيه حذوهم » .

لا يكفى أن يكون ملماً بهذه الشرائع حسب ما ذكره فى الشرط الثانى بل يجب كذلك أن يكون قادراً على تعليمها للناس وإرشادهم إليها وأن يصل فى هذا المضمار إلى درجة الإجادة .

* * *

---

(١) فى النسخة المتداولة « متجريا » والصواب ما أثبتناه .

« والسادس أن يكون له جودة ثبات ببدنه فى مباشرة أعمال الحرب . وذلك أن يكون معه الصناعات(١) الحربية الخادمة والرئيسة » .

يقصد صناعة الحرب الأصيلة والصناعات المتصـــلة بها الخادمة لها . ويشترط ذلك فى الرئيس لأنه القائد الأعلى لجيوشه .

* * *

« فإذا لم يوجد إنسان واحد اجتمعت فيه هذه الشرائط (أى الصفات الفطرية وصفة الحكمة وبقية الصفات المكتسبة) ولكن وجد اثنان أحدهما حكيم والثانى فيه الشرائط الباقية كانا هما رئيسين فى هذه المدينة » .

وهذا إذا توافر فى كل منهما الصفات الفطرية السابق ذكرها.

« فإذا تفرقت هذه » (أى الصفات المكتسبة) « فى جماعة وكانت الحكمة فى واحد ، والثانى فى واحد ، والثالث فى واحد ، والرابع فى واحد ، والخامس فى واحد ، والسادس فى واحد ، وكانوا متلائمين ، كانوا هم الرؤساء الأفاضل » . وهذا إذا توافر فى كل منهم جميع الصفات الفطرية السابق ذكرها .

« ومتى(٢) اتفق فى وقت ما أن لم تكن الحكمة جزء الرياسة

---

(١) فى النسخة المتداولة « الصناعة » والصواب ما أثبتناه .

(٢) فى النسخة المتداولة « فمتى » والفاء هنا لا محل لها ، اذ ليس ثم تفريع على ما سبق . والصواب استخدام الواو الدالة على الاستئناف ولو استخدم « ان » بدلا من « متى » لكان أفضل فى سبك العبارة .

وكانت فيها سائر الشرائط » (بأن لم يوجد حكيم مطلقاً وتوافرت الشروط الأخرى فى واحد أو أكثر) « بقيت المدينة الفاضلة بلا ملك ، وكان الرئيس القائم بأمر المدينة ليس بملك . وكانت المدينة تعرض للهلاك . وإن لم يتفق أن يوجد حكيم تضاف إليه لم تلبث المدينة بعد مدة أن تهلك » .

فالحكمة فى نظر الفارابى هى أهم ما يستقيم به أمر المدينة وأهم ما يجب توافره فى رئيسها . وهذا هو ما ذهب إليه أفلاطون فى جمهوريته . غير أن الفارابى يفسر الحكمة بالاتحاد بالعقل الفعال عن طريق القوتين الناطقة والمتخيلة ؛ على حين أن أفلاطون يرى أنها تتمثل فى توافر الحاسة السادسة التى تتيح إدراك المعقولات المحضة والمعانى الكلية والمثل . وكلا التفسيرين يختلف عن الآخر اختلافاً غير يسير .

فصفة الحكمة عند الفارابى هى الصفة التى لا بد من توافرها فى رياسة المدينة والتى لا يمكن أن يسد غيرها مسدها . فإذا عرت المدينة عن الحكمة تعرضت للهلاك ، وإذا أوتيت الحكمة مدعمة بالصفات الأخرى فقد أوتيت خيراً كثيراً .

— ٤ —

القول فى مضادات المدينة الفاضلة[1]

« والمدينة الفاضلة تضاد المدينة الجاهلة ، والمدينة الفاسقة ، والمدينة المبدّلة ، والمدينة الضالة ؛ ويضادها أيضاً من أفراد الناس نوائب المدن »[2] .

يقابل المدينة الفاضلة ، ويختلف عنها فى مقوماتها أربعة أنواع من المدن سماها الفارابى : « المدينة الجاهلة » ؛ و« المدينة الفاسقة » ؛ و« المدينة المبدّلة » ؛ و« المدينة الضالة » .

ويقابل أفراد المدينة الفاضلة كذلك أفراد هذه المدن التى تحل محلها ، فيختلف هؤلاء عن أولئك فى مقوماتهم .

ثم أخذ فى تعريف كل نوع من هذه الأنواع الأربعة ، وبدأ بالنوع الأول وهو « المدينة الجاهلة » فقال :

* * *

« والمدينة الجاهلة هى التى لم يعرف أهلها السعادة ولا خطرت

---

(١) أى فيما يقابل المدن الفاضلة ويختلف عنها فى مقوماتها .

(٢) جمع نائبة ، ويقصد بها المدن غير الفاضلة التى تنوب عن المدن الفاضلة وتحل محلها . فأفراد هذه المدن وسكانها يضادون أفراد المدينة الفاضلة ، أى يختلفون عنهم فى مقوماتهم . — والجملة ركيكة التركيب وهى على حذف مضاف ، أى ويضادها أيضا فيما يتعلق بأفرادها وسكانها أفراد هذه المدن وسكانها ، فيختلف هؤلاء عن أولئك فى مقوماتهم .

ببالهم ، إن أرشدوا إليها فلم يقيموها ولم يعتقدوها[١] ، وإنما عرفوا من الخيرات بعض هذه التى هى مظنونة فى الظاهر أنها خيرات من التى يُظن أنها هى الغايات فى الحياة ، وهى : سلامة الأبدان ، واليسار ، والتمتع باللذات . وأن يكون مُخَلّى هواه[٢] ، وأن يكون مكرماً ومعظماً . فكل واحد من هذه سعادة عند أهل الجاهلة . والسعادة العظمى الكاملة هى اجتماع هذه كلها . وأضدادها هى الشقاء وهى آفات الأبدان والفقر وألا يتمتع باللذات وألا يكون مخلّى هواه[٢] وألا يكون مكرماً » .

(النوع الأول) من أنواع المدن غير الفاضلة أطلق عليه الفارابى إسم « المدينة الجاهلة » ، وهى التى لا يعرف أهلها السعادة ولا تخطر ببالهم ، والسعادة فى نظر الفارابى كما سبق بيان ذلك[٣] ، هى أن يذلل للفرد طريق القيام بالأمور التى تخصه ، وهى الأعمال التى تصدر عن فكر وروية ، والسعادة بهذا المعنى هى « أفضل الكمالات » ، لأنها تتصل بأفضل القوى الإنسانية وهى القوة العاقلة . فأهل « المدينة الجاهلة » لا يعرفون السعادة بهذا المعنى ولا تخطر ببالهم . وحتى إن أرشدوا إليها لا يستطيعون سبيلا إلى استيفاء مقوماتها ومزاولتها ولا تقوى عقولهم على فهمها واعتقادها ، ومن ثم سميت مدينتهم « بالمدينة الجاهلة » . وقصارى ما يعرفونه من الخيرات يتمثل فى الأمور التى يظن عامة

---

(١) الواجب حذف الفاء من جواب الشرط ، فان هذا ليس من المواضع التى يقترن فيها جواب الشرط بالفاء . والمعنى أنهم يجهلون السعادة ، وحتى ان أرشدوا اليها لا يستطيعون اقامتها عمليا ، أى تكوين مقوماتها ومزاولتها ، ولا تقوى عقولهم على اعتقادها وفهمها .

(٢) الصحيح أن يقول : أن يكون الفرد مخلى وهواه ، أى متروكا لأهوائه ونزواته .

(٣) انظر الفقرة الأولى من الفصل الأول ، صفحات ٣٣ وتوابعها .

الناس أنها الغايات من الحياة ، مع أنها فى واقع الأمر ليست من السعادة الحقيقية ولا من الغايات المثلى فى شىء ، وهى: سلامة البدن ، واليسار المادى ، وأن تكون الفرص متاحة للتمتع باللذات ، وأن يكون الفرد طليقاً يعمل كما يشاء وتشاؤه له أهواؤه ونزواته ، وأن يكون مكرّماً ومعظماً عند الناس . فكل واحد من هذه الأمور يحقق سعادة لأهل « المدينة الجاهلة » . والسعادة العظمى الكاملة فى نظرهم هى أن تتحقق لهم هذه الأمور كلها . والشقاء فى نظرهم لا يتجاوز فقدان هذه الأمور كلها أو بعضها ، فيتمثل فى آفات البدن والفقر وألا يتاح للفرد التمتع باللذات وألا يكون طليقاً متروكاً لأهوائه وألا تكون له مكانة عند الناس.

* * *

« وهى تنقسم إلى جماعة مدن » :

« منها المدينة الضرورية ، وهى التى قَصْدُ أهلها الاقتصار على الضرورى مما به قوام الأبدان من المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح والتعاون على استفادتها » .

« والمدينة البدّالة ، وهى التى قصدُ أهلها أن يتعاونوا على بلوغ اليسار والثروة ، ولا ينتفعوا باليسار فى شىء آخر ، لكن على أن اليسار هو الغاية فى الحياة » .

« ومدينة الخسّة والشِّقوة ، وهى التى قصدُ أهلها التمتع باللذة من المأكول والمشروب والمنكوح ، وبالجملة اللذة من المحسوس والمتخيل ، وإيثار الهزل واللعب بكل وجه ومن كل نحو » .

« ومدينة الكرامة ؛ وهى التى قصدُ أهلها على أن يتعاونوا على أن يصيروا مكرمين ممدوحين مذكورين مشهورين بين الأمم ممجدين معظمين بالقول والفعل ذوى فخامة وبهاء ، إما عند غيرهم وإما بعضهم عند بعض[1] ؛ كل إنسان على قدر محبته لذلك أو مقدار ما أمكنه بلوغه منه » .

« ومدينة التغلب ؛ وهى التى قصد أهلها أن يكونوا الظاهرين لغيرهم [2] الممتنعين أن يقهرهم غيرهم ، ويكون كدهم اللذة التى تنالهم من الغلبة فقط » .

« والمدينة الجماعية ؛ وهى التى قصدُ أهلها أن يكونوا أحراراً يعمل كل واحد منهم ماشاء ، لا يمنع هواه فى شىء أصلا » .

« وملوك الجاهلة على عهد مدنها[3] . أن يكون كل واحد منهم إنما يدبر المدينة التى هو مسلط عليها ليحصّل هواها وميلها » .

« وهمم الجاهلة التى يمكن أن تجعل غايات هى تلك التى أحصيناها آنفاً » .

وهذا النوع الأول من أنواع المدن غير الفاضلة وهو الذى أطلق عليه الفارابى اسم « المدينة الجاهلة » ينقسم هو نفسه ستة أنواع ، يوجه كل نوع

---

(١) الصواب حذف اما ، فتكون الجملة : ذوى فخامة وبهاء فى نظر غيرهم وفى نظر بعضهم لبعض .

(٢) صوابه الظاهرين على غيرهم .

(٣) أى على غرار مدنها ومقاصدها .

منها جميع جهوده إلى ناحية معينة أو إلى بعض نواح من نواحى الغايات السابق بيانها .

١ — فمنها مايكون كل همه الحصول على الضرورى مما به قوام الأبدان من المأكول والمشروب والملبوس وما يسد الحاجة الجنسية وأن يتعاون أهله بعضهم مع بعض على الإفادة من هذه الضروريات . وقد أطلق الفارابى على هذا النوع من « المدينة الجاهلة » اسم « المدينة الضرورية » لاقتصار أهلها على الضروريات .

٢ — ومنها ما يكون كل همة التعاون على بلوغ اليسار والثروة لمجرد الوصول إليهما بقطع النظر عن الانتفاع بهما فى شىء آخر ؛ وبذلك تصبح الثروة المتمثلة فى جمع الأموال واكتنازها فى نظر أهل هذه المدينة غاية فى ذاتها ؛ مع أنها فى واقع الأمر ليست إلا وسيلة لتحقيق المنفعة وسد حاجات الإنسان . وقد أطلق الفارابى على هذا النوع من « المدن الجاهلة » اسم « المدينة البدالة » لأنها تبدل الأمور فتجعل الوسيلة غاية والأداة مقصداً .

٣ — ومنها ما يكون كل همه التمتع بأقصى ما يمكن الحصول عليه من المحسوس والمتخيل فى حالات السكر وما شاكلها من المأكولات والمشروبات واللذائذ الجنسية ، وإيثار اللعب والهزل بجميع ضروبهما ومصادرهما على جميع أنواع العمل والجد . وقد أطلق الفارابى على هذا النوع من « المدن الجاهلة » اسم « مدينة الخسة والشقوة » . ويلاحظ أن هذه المدينة تختلف عن « المدينة الضرورية » فى أن « المدينة الضرورية » كل همها الحصول على الضرورى من المأكول والمشروب والملبوس وما يسد الحاجة الجنسية كما تقدم بيان ذلك ، على حين أن هذه لا تكتفى بالضرورى من هذه الأمور ، بل يتجه همها إلى التمتع بأقصى ما يمكن الحصول عليه منها ، وهذا هو أخس وأشقى ما يمكن أن ينحدر إليه مجتمع إنسانى . ولذلك سماها « مدينة الخسة والشقوة » . وسماها فى موضع آخر من كتابه « المدينة الساقطة »[1] .

---

(١) انظر آخر فصل من كتابه هذا ، وهو الفصل الذى جعل عنوانه « القول فى المدن الجاهلة » .

٤ — ومنها ما يكون كل همه أن يتعاون أهله على أن يصيروا مكرمين ممدوحين مذكورين مشهورين ممجدين معظمين بالقول والفعل ذوى فخامة وبهاء فى نظر غيرهم من المجتمعات وفى نظر بعضهم لبعض ، وأن يحصل كل واحد منهم من هذه الأوضاع على قدر طموحه أو مقدار ما يمكنه بلوغه منها . — وقد أطلق الفارابى على هذا النوع من « المدن الجاهلة » اسم « مدينة الكرامة » لاتجاه همم أهلها إلى مايتعلق بكرامتهم وسمعتهم .

٥ — ومنها مايكون كل همه أن يتعاون أهله على أن يكونوا الظاهرين على غيرهم الممتنعين أن يقهرهم غيرهم ، وتكون متعتهم فيما يحققه لهم هذا الغلب من لذة وشعور بالاستعلاء . وقد أطلق الفارابى على هذا النوع من « المدن الجاهلة » اسم « مدينة التغلب » لاتجاه همم أهلها إلى الغلب والسيطرة .

٦ — ومنها ما يكون كل همه أن يتعاون أفراده على أن يكونوا أحراراً يعمل كل واحد منهم ما يشاؤه وتشاؤه له أهواؤه ، لا تقف أمامه موانع ولا قيود ؛ فالحرية المطلقة للأهواء هى فى ذاتها غايتهم وقصارى ما يطمحون إليه . وقد أطلق الفارابى على هذا النوع من المدن اسم « المدينة الجماعية » لأنها تجمع هماً وأغراضاً كثيرة من همم المدن السابقة وأغراضها ولأنها قد تنقسم إلى جماعات تبعاً لاختلاف مشارب أهلها ، فتكون فيها جماعة تجنح للسلم وجماعة أخرى تجنح للغلب والمدافعة والسيطرة(١) .

وملوك كل نوع من أنواع هذه المدن الجاهلة يدبرون مدينتهم على وجه يحقق لأهلها الغايات التى يرومونها .

وغايات المدن الجاهلة بجميع أنواعها الست لاتتجاوز الغايات التى بيناها ، وهى غايات لاتمت بصلة ما إلى السعادة بمعناها الحقيق .

---

(١) هكذا علل الفارابى هذه التسمية فى آخر فصل من كتابه .

وبعد أن فرغ الفارابى من شرح النوع الأول من أنواع المدن غير الفاضلة وهو الذى سماه « المدينة الجاهلة » وبين مظاهره الست ، أخذ فى بيان النوع الثانى وهو الذى سماه « المدينة الفاسقة » فقال :

* * *

« وأما المدينة الفاسقة فهى التى آرؤاها الآراء الفاضلة وهى التى تعلم السعادة والله عز وجل والثوانى(١) والعقل الفعال(٢)، وكل شىء سبيله أن يعلمه أهل المدينة الفاضلة ويعتقدونها ؛ ولكن تكون أفعال أهلها أفعال أهل المدينة الجاهلة » .

والنوع الثانى : من أنواع المدن غير الفاضلة أطلق عليه الفارابى اسم « المدينة الفاسقة » ، وهى التى تدرك عقولها السعادة بالمعنى السابق بيانه(٣) وتدرك الذات العلية والثوانى وهى العقول التسعة المنبثقة عن الذات العلية والمشرفة على جميع الكائنات غير الإنسانية وتدرك العقل العاشر وهو العقل الفعال المشرف على الكائنات الإنسانية ، وبالجملة تدرك جميع ما تدركه المدينة الفاضلة وتعتقد جميع ما تعتقده هذه المدينة (وبذلك تختلف فى الإدراك والعقيدة عن المدينة الجاهلة التى لاتقوى عقولها على إدراك شىء من ذلك ولا تستطيع نفوسها اعتقاده) ؛ ولكنها على الرغم من إدراكها

---

(١) يقصد بها العقول التسعة التى يذهب الى أنها تنبثق عن الله تعالى كما ينبثق الضوء عن الشمس وتشرف على الكائنات غير الانسانية كما سبق بيان ذلك (انظر آخر ص ٤٨ وأول ص ٤٩) .

(٢) هو العقل العاشر الذى يذهب الفارابى الى أنه المشرف على الكائنات الانسانية (انظر ص ٤٩) .

(٣) انظر ص ٣٣ .

جميع مدركات المدينة الفاضلة تكون أفعال أهلها كأفعال أهل المدينة الجاهلة . ومن ثم أطلق عليها اسم « المدينة الفاسقة » ، لأن الفاسق يرتكب القبيح مع علمه بأنه قبيح ومع إدراكه للحسن الذى يقابله واعتقاده أنه حسن .

ثم أخذ بعد ذلك فى بيان النوع الثالث من المدن غير الفاضلة ، وهو الذى سماه « المدينة المُبَدَّلة » فقال :

* * *

« والمدينة المبدَّلة فهى التى كانت آراؤها وأفعالها فى القديم آراء المدينة الفاضلة وأفعالها ، غير أنها تبدلت فدخلت فيها آراء غير تلك ، واستحالت أفعالها إلى غير تلك » .

والنوع الثالث : من أنواع المدن غير الفاضلة أطلق عليه الفارابى اسم « المدينة المُبَدَّلة » وهى التى كانت آراؤها وأفعالها فى عهودها الأولى مطابقة لآراء أهل المدينة الفاضلة وأفعالهم ، ثم انتكست فاعتنقت آراء غير ما كانت تعتنقه من آراء وتوفرت على غير ما كانت تتوفر عليه من أعمال . ومن ثم سميت « المبدلة » لأنها بدلت الانحراف بالحق والخطأ بالصواب .

ثم أخذ فى بيان النوع الرابع والآخير من المدن غير الفاضلة وهو الذى سماه « المدينة الضالة » فقال :

* * *

« والمدينة الضالة هى التى تظن بعد حياتها هذه السعادة ، ولكنها غيرت هذه ، وتعتقد فى الله عز وجل وفى الثوانى وفى العقل الفعال آراء فاسدة لا تصلح عليها ولا إن أخذت على

أنها تمثيلات وتخييلات لها ، ويكون رئيسها الأول ممن أوهم أنه يوحى إليه من غير أن يكون كذلك ، ويكون قد استعمل فى ذلك التمويهات والمخادعات والغرور » .

والنوع الرابع : من أنواع المدن غير الفاضلة أطلق عليه الفارابى اسم « المدينة الضالة » وهى التى ترى أن السعادة وراء حياتها المادية التى تحياها ، أى إنها شىء آخر غير هذه الحياة المادية ، ولكن انحرف فى تفكيرها مدلول السعادة عن حقيقته ، ورأت فى صفات الله عز وجل وفى العقول التسعة وفى العقل الفعال آراء فاسدة لا تتفق مع حقائق هذه الأمور ، سواء أخذت هذه الآراء على ظاهرها ، أى على أنها تعريف لصفات الله وللعقول ، أو أخذت على أنها مجرد تمثيل وتخييل ، ويكون رئيس هذه المدينة نبياً كاذباً يحاول إيهام الناس بوسائل التمويه والمخادعة والغرور أنه يوحى إليه وهو لا يوحى إليه شىء .

* * *

« وملوك هذه المدن مضادة لملوك المدن الفاضلة ، ورياستهم مضادة للرياسات الفاضلة ، وكذلك سائر من فيها » .

وملوك هذه المدن الأربع غير الفاضلة يضادون ملوك المدن الفاضلة ، ومناهجهم فى الحكم والرياسة تضاد مناهج هؤلاء . وكذلك أهل المدن غير الفاضلة ، فإنهم يضادون فى أفكارهم وسلوكهم أهل المدن الفاضلة .

وبمناسبة ما قرره فى هذه الفقرة الأخيرة من تضاد بين المدن غير الفاضلة والمدن الفاضلة فى ملوك كليهما وأهلها استطرد إلى أمور تتصل بملوك المدن الفاضلة ورؤسائها وذوى المراتب فيها وأهلها وأفعالهم واستعداداتهم ، ولا تدخل تحت موضوع هذا الفصل ، فقال :

* * *

« وملوك المدن الفاضلة الذين يتوالون فى الأزمنة المختلفة واحداً بعد آخر كلهم كنفس واحدة وكأنهم ملك واحد يبقى الزمانَ كله ، وكذلك إن اتفق منهم جماعة فى وقت واحد إما فى مدينة واحدة وإما فى مدن كثيرة ، فإن جماعتهم كملك واحد ونفوسهم كنفس واحدة . وكذلك أهل كل رتبة منها متى توالوا فى الأزمنة المختلفة ، فكلهم كنفس واحدة تبقى الزمان كله ، وكذلك إن كان فى وقت واحد جماعة من أهل رتبة واحدة وكانوا فى مدينة واحدة أو مدن كثيرة ، فإن نفوسهم كنفس واحدة ، كانت(١) تلك الرتبة رتبة رياسة أو رتبة خدمة » .

والملوك الذين يتوالون فى رياسة مدينة فاضلة ما فى الأزمنة المختلفة واحداً بعد آخر يكونون أشبه شىء بنفس واحدة وكأنهم ملك واحد يبقى الزمان كله ؛ لأن كل واحد منهم تتوافر فيه الصفات الجسمية والنفسية التى كانت متوافرة فيمن قبله ، إذ لا يصلح أن يكون ملكاً المدينة الفاضلة إلا بتوافر هذه الصفات فيه ، فكأن كل واحد منهم صورة متكررة ممن قبله وكأنهم جميعاً نفس واحدة .

وكذلك إن اتفق وجود عدة ملوك فى وقت واحد لعدة مدن فاضلة فإنهم — لاتفاقهم فى الصفات الجسمية والنفسية — يكونون كملك واحد ونفس واحدة فى الفترة التى يتولون فيها الرياسة .

---

(١) أى سواء أكانت تلك الرتبة رتبة رياسة أم رتبة خدمة .

وكذلك إن رأس مدينة فاضلة واحدة أكثر من رئيس واحد فى وقت واحد ، بأن لم تتوافر صفات الملك الفاضل جميعها فى شخص واحد بل تفرقت فى عدة أشخاص ، فأصبحوا مستحقين للرياسة وأصبح لهذه المدينة أكثر من رئيس واحد(١) ؛ فإن جماعة هؤلاء الرؤساء بضم صفاتهم بعضها إلى بعض يكمل بعضهم بعضاً فيصبحون كرئيس واحد وتصبح نفوسهم كنفس واحدة .

وما قلناه فى الملوك نقول مثله فيمن يتولون رتباً دون رتبة الملك(٢) فى مدينة واحدة فاضلة أو فى عدة مدن فاضلة .

فأهل كل رتبة واحدة منهم الذين يتوالون فى الأزمنة المختلفة واحداً بعد آخر فى مدينة واحدة يكونون كنفس واحدة وكشخص واحد بقى الزمان كلّه ، وذلك لاتفاقهم فى الصفات التى جعلتهم أهلا لهذه الرتبة .

وأهل كل رتبة واحدة فى عدة مدن فاضلة يكونون كذلك كنفس واحدة وشخص واحد فى الفترة التى يضطلعون فيها بأعباء هذه الرتبة للسبب نفسه السابق بيانه .

وكذلك إن توزعت أعباء الرتبة الواحدة فى مدينة واحدة على عدة أشخاص فإنهم بضم صفاتهم بعضها إلى بعض يكمل بعضهم بعضاً ، فيصبحون كنفس واحدة وشخص واحد .

---

(١) انظر الفصل الثالث صفحات ٧٤ وتوابعها . وفى هذا يقول الفارابى : « فاذا لم يوجد انسان واحد اجتمعت فيه هذه الشرائط أى الصفات المكتسبة ، ولكن وجد اثنان أحدهما حكيم والثانى فيه الشرائط الباقية كانا هما رئيسين فى هذه المدينة . فاذا تفرقت هذه فى جماعة ، وكانت الحكمة فى واحد والثانى فى واحد والثالث فى واحد والرابع فى واحد والخامس فى واحد والسادس فى واحد ، وكانوا متلائمين ، كانوا هم الرؤساء الأفاضل ... » .

(٢) انظر فى هذه الرتب الفصل الأول صفحات ٣٨ ـ ٤١ : « والمدينة الفاضلة تشبه البدن الصحيح الذى تتعاون أعضاؤه كلها ... الخ » .

ولا فرق فى هذه الرتب بين أن تكون رتباً لها رياسة على رتب أدنى منها بجانب خدمتها لرتب أرقى منها أو أن تكون رتباً خادمة لرتب أرقى منها وليس لها رياسة على رتبة ما(١) .

* * *

« وأهل المدينة الفاضلة لهم أشياء مشتركة يعلمونها ويفعلونها ، وأشياء أخص من علم وعمل تخص كل رتبة وكل واحد منهم . إنما يصير فى حد السعادة بهذين ، أعنى بالمشترك الذى له ولغيره وبالذى يخص أهل المرتبة التى هو منها . فإذا فعل ذلك كل واحد منهم أكسبته أفعاله تلك هيئة نفسية جيدة فاضلة . وكلما داوم عليها أكثر صارت هيئته تلك أقوى وأفضل وتزايدت قوتها وفضيلتها . كما أن المداومة على الأفعال الجيدة من أفعال الكتابة تكسب الإنسان جودة فى صناعة الكتابة ، وكلما داوم على تلك الأفعال أكثر صارت الصناعة التى تكون بها تلك الأفعال أقوى وأفضل ، وتزيد قوتها وفضلها بتكرير أفعالها . ويكون الالتذاذ التابع لتلك الهيئة النفسانية أكثر ، واغتباط الإنسان عليها نفسه أكثر ، ومحبته لها أزيد »(٢) .

وأفراد المدينة الفاضلة تجمعهم صفات مشتركة فيما زودوا به من معارف وما هيئوا له من أفعال ؛ ويختص أهل كل رتبة منهم بمعارف وأعمال

---

(١) انظر فى هذا صفحات ٣٨ — ٤٦ ، ٥٢ — ٥٤ .

(٢) جملة « ويكون الالتذاذ التابع لتلك الهيئة النفسية ... الخ » مسلطة على المشبه والمشبه به فى هذه العبارة .

يتميزون بها عن أهل الرتب الأخرى ؛ ويختص كل فرد منهم كذلك بمعارف وأعمال يختلف فيها عن غيره .

والأفعال المشتركة والخاصة لأفراد أهل المدينة الفاضلة كلها أفعال فاضلة تنال بها السعادة . فتتحقق سعادة كل فرد منهم بمزاولته الأفعال المشتركة بينه وبين غيره والأعمال الخاصة بأهل مرتبته .

ومزاولة كل واحد منهم لهذه الأفعال تؤثر فى حالته النفسية فتوجد لديه استعداداً نفسياً جيداً وهيئة نفسية فاضلة . وكلما كثرت مزاولته لهذه الأعمال ومداومته على أدائها زاد هذا الاستعداد النفسى قوة وزادت هذه الهيئة النفسية فضلا . وينجم عن هذا الاستعداد النفسى لذة فى مزاولة العمل وحب لأدائه . وبكثرة تكرار العمل وزيادة الاستعداد النفسى قوة تبعاً لذلك يتزايد مقدار اللذة فى مزاولة العمل ومقدار اغتباط الإنسان به ومحبته له . ويمكن أن يشبه ذلك بمزاولة الفرد الأوضاع الجيـــدة من أعمال الخط والكتابة : فبفضل هذه المزاولة يكتسب الإنسان استعداداً جديداً فى صناعة الكتابة ، وعن هذا الاستعداد النفسى تتولد اللذة فى مزاولة الكتابة ؛ وكلما كثرت مزاولته لها ومداومته عليها وتكريره لأفعالها زاد استعداده النفسى لهذه الصناعة قوة وجودة ، ويتزايد تبعاً لذلك مقدار اللذة بمزاولة العمل ومقدار اغتباط الإنسان بصناعته ومحبته لها .

* * *

« وتلك حال الأفعال التى تنال بها السعادة ، فإنه كلما زيد منها وتكررت وواظب الإنسان عليها صيرت النفس التى من شأنها أن تستعد أقوى وأفضل وأكمل ، إلى أن تصير من حد الكمال إلى أن تستغنى عن المادة ، فتحصل متبرئة منها ؛ فلا تتلف بتلف المادة ، ولا إذا بقيت احتاجت

إلى مادة . فإذا حصلت مفارقةً للمادة غير متجسمة ارتفعت فيها الأعراض التى تعرض للأجسام من جهة أنها أجسام . فلا يمكن فيها أن يقال إنها تتحرك أو إنها تسكن . وينبغى حينئذ أن يقال عنها الأقاويل التى تليق بما ليس بجسم . وكلما وقع فى نفس الإنسان من شىء يوصف به الجسم بما هو جسم فينبغى أن يسلب عن الأنفس المفارقة . وتَفَهُّم حالها هذه وتصورها عسير غير معتاد » .

وهذه هى حال الأفعال التى تنال بها السعادة والتى يزاولها أهل المدينة الفاضلة . فكلما تكررت مزاولتها وواظب الإنسان عليها صيرت النفس التى تسعد بها أقوى وأفضل وأكمل فى عالم النفوس وأبعدتها عن عالم المادة ودنيا الأجسام ، وهكذا إلى أن تصل فى سلم الكمال النفسى إلى وضع تستغنى فيه عن الفعل وعن الجسم الذى يقوم بالفعل وعن المادة التى يستعان بها فى الفعل، ويصبح كمالها كمالا ذاتياً غير متوقف على فعل ولا جسم ولا مادة ، فلا تتلف بتلف المادة ولا تحتاج فى بقائها إلى مادة . فإذا وصلت فى الصفاء إلى هذه الدرجة فأصبحت مفارقة للمادة وغير متجسمة أى غير مرتبطة بالجسم زالت عنها جميع الأعراض التى تعرض للأجسام من حيث إنها أجسام ، فلا يعتورها ما يعتور الأجسام من تغير وحركة وسكون ، وتوصف بصفات الأشياء التى ليست بجسم ولا توصف بشىء مما يتصوره الإنسان من صفات الأجسام . فهى نفس مفارقة لجميع مظاهر المادة والجسم . وتَصَوُّر حالها هذه وتفهمه أمر عسير غير معتاد .

* * *

« وكذلك يرتفع عنها كل ما كان يلحقها ويعرض لها بمفارقتها للأجسام . ولما كانت فى هذه الأنفس التى فارقت أنفس كانت فى هيولات[1] مختلفة، وكان يبين أن الهيئات النفسية تتبع مزاجات الأبدان بعضها أكثر وبعضها أقل ، وتكون كل هيئة نفسانية على نحو ما يوجبه مزاج البدن الذى كانت فيه ؛ فهيئتها لزم فيها ضرورة أن تكون متغيرة لأجل التغير الذى فيها كان . ولما كان تغاير الأبدان إلى غير نهاية محددة كانت تغايرات الأنفس أيضاً إلى غير نهاية محددة » .

ويرتفع كذلك عن هذه الأنفس التى وصلت فى الصفاء إلى الحد السابق ذكره جميع ما كان يلازم غيرها عند مفارقته الأجسام . وذلك أن الأنفس العادية عند مفارقتها الأجسام تكون كل نفس منها متأثرة كثيراً أو قليلا بمزاج البدن الذى كانت فيه ، فتتغير هيئتها النفسية بسبب ما يلحقها من تأثر بهذا المزاج . ولما كانت الأجسام يختلف بعضها عن بعض فى أمزجتها ل من فيحصل ذلك أوضاع جسمية تجل عن الحصر ، ولما كانت كل نفس من الأنفس العادية المفارقة للجسم تظل متأثرة قليلا أو كثيراً بمزاج الجسم الذى فارقته ، لذلك كانت هذه الأنفس متغايرة إلى غير نهاية محدودة .

---

(١) انظر معنى هذه الكلمة فى صفحة ٤٩ .

— ٥ —

القول فى اتصال النفوس بعضها ببعض

« وإذا مضت طائفة فبطلت أبدانها وخلصت أنفسها وسعدت، خلفهم ناس آخرون فى مرتبتهم بعدهم قاموا مقامهم وفعلوا أفعالهم. فإذا مضت هذه أيضاً وخلت صاروا أيضاً فى السعادة إلى مراتب أولئك الماضين ، واتصل كل واحد بشبيهه فى النوع والكمية والكيفية . ولأنها كانت ليست بأجسام صار اجتماعها ولو بلغ ما بلغ غير مضيق بعضها على بعض مكانها ، إذ كانت ليست فى أمكنة أصلا ، فتلاقيها واتصال بعضها ببعض ليس على النحو الذى توجد عليه الأجسام . وكلما كثرت الأنفس المتشابهة المفارقة واتصل بعضها ببعض . وذلك على جهة اتصال معقول بمعقول ، كان التذاذ كل واحدة منها أزيد شديداً. وكلما لحق بهم من بعدهم زاد التذاذ من لحق الآن بمصادفة الماضين وزادت لذات الماضين باتصال اللاحقين بهم ؛ لأن كل واحدة تعقل ذاتها وتعقل مثل ذاتها مراراً كثيرة، فتزداد كيفية ما يعقل . ويكون تزايد ما نلاقى هناك شبيهاً بتزايد قوة صناعة الكتابة بمداومة الكاتب على أفعال الكتابة . ويقوم تلاحق بعض ببعض فى تزايد كل واحد مقام ترادف أفعال الكتاب[1] التى بها تتزايد كتابته قوة

(١) مصدر كتب أى الكتابة .

وفضيلة . ولأن المتلاحقين إلى غير نهاية يكون تزايد قوى كل واحد واحد ولذاته على غابر الزمان إلى غير نهاية . وتلك حال كل طائفة مضت » .

وإذا فنيت أجسام طائفة من هؤلاء المصطفين الأخيار فارقتها نفوسها وتخلصت من أغلال المادة وعاشت ناعمة سعيدة فى عالم الأنفس . فإذا خلفهم ناس آخرون فى مرتبتهم فقاموا مقامهم وفعلوا أفعالهم وفنيت أجسامهم ، فارقتهم نفوسهم كذلك ، وعاشت ناعمة سعيدة فى العالم نفسه الذى تعيش فيه نفوس أسلافهم . ومثل هذا يقال فيمن يخلف هؤلاء . وفى عالم الأنفس تتصل مواكب النفوس بأشباهها ، وتتعارف الأرواح على نظائرها ، وتجتمع بها وتأتلف . وهكذا دواليك تتصل نفوس كل جيل لاحق بنظائرها من نفوس السابقين وتجتمع بها وتأتلف . فالنفوس — كما يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه — جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف . ولما كانت النفوس مبرأة من صفات الأجسام ، ومجردة من المادة ، ولا تشغل حيزاً من الفراغ ، لذلك أمكن اجتماع أى عدد منها بالغاً ما بلغ أى عدد آخر بالغاً ما بلغ كذلك ، بدون أن يترتب على ذلك تزاحم فى الحيز ولا ضيق فى المكان . فاتصال بعضها ببعض ليس على النحو الذى يتصل فيه جسم بجسم ، بل هو أشبه شىء باتصال معقول بمعقول . ويحصل عن هذا الاجتماع والائتلاف لذة تشتد وتقوى كلما كثرت الأنفس المتشابهة واتصل بعضها ببعض على النحو السابق بيانه . وكلما لحق بموكب منها موكب آخر من نظائرها زاد التذاذ من لحق الآن بلقاء الماضين وزادت لذات الماضين باتصال اللاحقين بهم . لأن كل نفس تعقل ذاتها وتعقل جميع ما يشبه ذاتها بالغاً ما بلغ عددها ؛ وكل تعقل لذات شبيهة يحدث لذة للشبيه ، فتتزايد اللذة بتزايد المعقول . ويكون تزايد القوة واللذة بتزايد ما يتلاقى من هـــذه الأنفس أشبه شىء بتزايد قوة الكتابة وجودتها وفضلها وتزايد اللذة الناشئة عن ذلك تبعاً لمداومة الكاتب على

أفعال الكتابة وتكرارها وتلاحقها . — ولما كانت النفوس اللاحقة سيتوالى ظهورها إلى غير نهاية ما دام هناك بشر وموت وحياة ، لذلك كانت القوة واللذة الحاصلتان لكل نفس من لقاء شبيه لاحق تظلان متزايدتين إلى غير نهاية .

ويظهر لى أن الفارابى قد استوحى هذه اللوحة المشرقة الرائعة من قوله تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ؛ فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم[1] ، ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين »[2] .

انتهى

---

(١) يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم بعد ، لما تبين من أمرهم وهو أنهم اذا ماتوا أو قتلوا كانوا مثلهم أحياء حياة ناعمة لا يكدرها حزن ولا خوف ، وسيزيد استبشارهم بهم عندما يلحقون بهم بالفعل .

(٢) آيات ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ من سورة آل عمران .